

الدكتور إبراهيم مذكور

أحاديث اجتماعية وثقافية

دار الشروق

أحاديث اجتماعية وثقافية

الدكتور إبراهيم مدكور

دار الشروق 

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨١ - ١٤٠١

© دار الشروق

القائمة: ١٦ شارع خالد بن الوليد، هاتف: ٧٥٤٣١٤، بريدنا: شروق الناصر - تلکون، 93091 SHROK UN
بمعلومات: ١ ص ب ٨٠٦٤، هاتف: ٣١٥٨٥٩، بريدنا: داشروق - تلکون، 5HOROK 20175 LE

بيان

هذه سلسلة من ثلاث حلقات أذيعت في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، ولم أشأ أن أضيف إليها إذاعات سابقة ، لأنها تدور حول بعض المشاكل الاجتماعية والقضايا الفكرية المعاصرة ، وتنصب على موضوعات يتصل بعضها ببعض . ولا أظن أن هذه الموضوعات قد استوفت بحثاً ، أو أنا قد انتهينا فيها إلى حلول عملية فاصلة ، ولا يزال مجال القول فيها ذاسعة وعسى أن يكون في نشرها ما يوجه الأنظار إليها ، لاسيما ومستمعوها في الماضي محدودون منها بلغوا . .

الحلقة الأولى

الشباب

١ - الشباب

يطيب لنا الحديث عن الشباب دائماً . لأنهم زهرة الحياة
وعدة المستقبل . وقد قدر لي أن أعيش معهم طويلاً . عرفتهم
شاباً فالتقت لغتي بلغتهم واختلطت أحاسيسي بأحاسيسهم .
والشاب أقرب ما يكون إلى أخيه الشاب . وشاءت الصدفة أن
أعيش مع شبان كثيرين من أهلى وغير أهلى . من وطنى وغير
وطنى ، والشباب لحمة قد تزيد أحياناً على لحمة القرابة
والنسب .

وعرفتهم كهلاً وشيخاً فى أبنائى وتلاميذى ، وأفضل أن
أسمى الأخيرين أصدقائى . وما أجمل صلة التلميذ بأستاذه
حين تتحول إلى صداقة ، يأنس فيها التلميذ إلى الأستاذ .
فيفضى إليه بكل ما فى نفسه . ويستعين به فى قضاء حوائجه
وحل مشاكله . ويرفع الأستاذ الكلفة ، فيعامل تلميذه معاملة
الند للند ، ويسمو بمعنوياته . ويغرس فى نفسه دعائم الرجولة
الحقة . وكثيراً ما فاتتنا هذه الصداقات فى تعليمنا الجامعى .

وما أحوجنا إليها . فالتنا تحت ضغط العمل وأعباء الحياة . ضغط على الطلبة والأساتذة على حد سواء . وفالتنا تحت تأثير العدد وكثرته ، وهذه مشكلة تعليمية كبرى لابد أن نجد لها حلا ، إن في التعليم العام أو في التعليم الجامعي ، وإلا كتب على تعليمنا أن يبقى آليا لا روح فيه ، وماديا لا قلب له .

والصدقة التي أنشدها ، هي صدقة الطالب الجامعي لأستاذه ، صدقة تغذى العقل والروح معاً ، وتقدم نماذج حية لسلوك يحتذى ومثل أعلى يسار على نهجه ، والأستاذ الجامعي خير ما نرجو لهذا السلوك ، وأولى الناس بضرب هذا المثل . أريد باختصار أن تكون علاقة الطالب بأستاذه شبيهة بعلاقة الصوفي بشيخه ، يرى فيه قدوته وإمامه . ويقرب منه قرباً تنفذ فيه أشعته إلى نفسه ، وتتصل روحه بروحه . وأخشى ما أخشاه أن يكون نصيب الحياة الروحية في تربيتنا وتعليمنا في تضاؤل مستمر ، وهذه ناحية يجدر بنا أن نرعاها وأن نغني بها عناية خاصة . ولا أزال أذكر كلمة قالها عاطف بركات يوماً لطلابه في مدرسة القضاء الشرعي : « كم أود أن أكون بينكم بمثابة الشيخ من مريديه ، وألا يقل نصيبي في تربية أرواحكم عنه في تربية عقولكم » .

ويمر الشباب الآن بأزمة حادة بتطايير شررها يمينًا وشمالاً .
وتنتقل عدواها شرقًا وغربًا . وليس شبابنا بمأمن منها .
وعدوى الأفكار والعادات ليست أقل من عدوى الأزياء
«المودات» . ونحن مولعون بتقليد الغرب في كل شيء . ووسائل
عدواه كثيرة . وسرعتها خاطفة . هي من سرعة التفاثات
واللاسلكيات . وكثيرًا ما تنتقل العدوى دون أن نحس بها ، ثم
تتمكن من نفوسنا فلا نعرف كيف نخلص منها .

ومن أخص خصائص أزمة الشباب الحاضرة قلق وحبيرة .
وعدم شعور بالرضا . واستهانة بالقيم . وضرب من اللامبالاة
الزائدة . فالشباب اليوم قلق في حركاته وسكناته . في صلاته
وعلاقاته ، وكثيرًا ما يتزع إلى التغيير ولو إلى أسوأ . وليس في
القلق راحة ولا رضا ، فهو غير راض عن حاضره وغير
مطمئن إلى مستقبله . واستهانتة بالقيم ملحوظة في قوله وعمله ،
للا يعتد بعرف أو تقليد ، ولا يحترم سنًا أو تجربة . وهذه
الاستهانة تؤدي إلى عدم المبالاة والتقصير في الواجب الخاص
والعام .

* * *

وكم نتمنى أن تكون هذه الأزمة عارضة لا تلبث أن

تزول ، وأن تكون هذه الأمراض طارئة سنخلص منها بعد قليل . ولكن واجبنا أن نبحث عن أسبابها ، وأن نبذل الجهد في معالجتها ودرء خطرهما . هي أجدر مشاكلنا التربوية والتعليمية بالعلاج ، وأمسها حاجة إلى التعهد والرعاية .

وليس العلاج مجرد قول يلقي ، أو نقد يوجه ، بل هو أساساً تنشئة الشباب وتربيته ، وإن لم يتعهد منذ البداية عزّ تداركه فيما بعد .

وينشأ ناشئُ الفتيان فينا

على ما كان عوده أبوه
وأولى بالأب أن يتخذ من ابنه الشاب زميلاً ، وبالأُم أن تنزل أبنيتها الشابة منزلة الصديقة . ومن اليسير أن نحكم على الشاب بزملائه وأقرانه ، وشبيه الشيء منجذب إليه ، وما أجدرنا أن نتعرف هؤلاء الزملاء . وأن نقف على حقيقتهم في غير ما تلصص ولا جاسوسية . ومن الخير أن يعالج العيب في حينه ، وإلا تضخم ، وربما عز علاجه . وعلى المجتمعات الصغيرة من أسرة وناد في ذلك عبء هام ، إلى جانب أعباء المجتمع الكبير ، وكل تلك نواح سنعرضها بشيء من التفصيل في أحاديثنا المقبلة .

٢ - الشباب والأسرة

الأسرة مجتمع صغير ، وفي صلاحه صلاح المجتمع الكبير .
وللأسرة في تربية أبنائها وظائف إن أدت على وجهها كانت لها
ثمار طيبة . ونسأل اليوم : هل تؤدي هذه الوظائف كما
ينبغي ؟ وهل تقوم الأسرة برسالتها ؟ هل ترعى أبنائها رعاية
كاملة ؟ إنى أدع للسادة المستمعين الإجابة عن هذه الأسئلة ،
وأكتفى بأن أشير إلى أنه قد يكون في ظروف حضارتنا الحاضرة
ما يحول دون هذه الرعاية ، فالأبوان العاملان قد لا يجدان
وقتاً كافياً يمنحانه لصغار أبنائهما ، فضلاً عن كبارهم ،
والاشتراك في الأنشطة والجمعيات قد يصرف الأب والأم عن
أحب الناس إليهما .

وأخشى ما أخشاه أن نكون سائرين في الطريق الذى
سارت فيه الأسرة الغربية ، طريق يعانى فيه الأبناء ما يعانون .
ونسأل بحق : هل لا تزال في الغرب أسرة ؟ لاشك في أنها

تلاشت ، وتوشك أن تنهار . فقراة الأعمام والأخوال أصبحت
وكان لا وجود لها ، وقراة الأخ والأخت لا تذكر إلا في
مناسبات خاصة . واقتصرت الأسرة الغربية على الأب والأم
وأولادهما ، على أنها في وضعها هذا ليست واضحة التماسك
ولا سليمة البنیان ، وكثيراً ما يكون الأب في واد والأم في
واد ، والأبناء حيارى بين هذا وذاك . وإذا ما بلغوا الخامسة
عشرة أعلنوا استقلالهم ، ونسوا أحياناً أن لهم آباء وأمهات .
تلك هي المحنة التي يعاني منها المجتمع الغربي ، ولا يدري كيف
يخرج منها ، ولا شك في أن آثارها سيئة على الأطفال والشبان .

ففي أسرة كهذه يعز علينا أن نتحدث عن روح وقلب ، أو
عن امتزاج وتعاطف ، ومجال الإشراف محدود ، وسبل الرعاية
ناقصة . وأعضاء هذه الأسرة أشبه ما يكون بمجرد شركاء في
المسكن والمأكل ، وربما أكلوا فرادى لا يلتقون على طعام
أو شراب ، وقد لا يرى بعضهم بعضاً لعدة أيام . للأب
عمله وناديه وأصدقائه واجتماعاته ، ولا مناص من أن يضيع
واجب الأبوة في ثنايا ذلك . وقد لا تختلف الأم عن هذا
كثيراً ، ويضيع واجب الأسرة كلها نحو أبنائها . وعبئاً نحاول
إن شئنا أن نحل محل ذلك المروضات والمرافقات ، أو بيوت

الطفولة والشباب ، فكل تلك حلول مصطنعة لا يمكن أن تغنى عن الحلول الطبيعية ، فى وسعها أن تساعد. ولكنها لا يمكن أن تحل محل قلب الأم وعين الأب .. على أنا أصبحنا ولا سبيل لنا إلى هذه المرضعات والمرافقات .

وقديماً قالوا : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولا سبيل لأن نلعب أطفال اليوم سبعا بحال . فنحن ندفع بهم إلى رياض الأطفال فى سن الثالثة ، ولو استطعنا لأرسلناهم قبلها . ولاشك أنا نحاول بهذا أن نخلص من بعض أعبائهم . وأصبحت مرحلة الطفولة فى الحقيقة قصيرة جداً . وتحولت إلى مرحلة جدّ ومسئولية عن واجبات تؤدي . وامتحانات نقل وقبول . وما أحوجها فى وضعها هذا أن تنال حظاً وافراً من عطف الآباء وحنان الأمهات .

وما انتزعناه من سنى اللعب أضفناه إلى سنى التأديب . وأصبحنا نؤدب أولادنا عشرًا أو يزيد . وليتنا نتولى شيئاً من تأديبهم بأنفسنا . ولكننا وكلناه كله تقريباً لغيرنا . ومع تقديري لشأن المدرسة أحب أن ألاحظ أن لغة الأب والأم تختلف عن لغة المعلم والمعلمة . وما أحوجنا فى مرحلة الطفولة الغضة إلى

كثير من الحنان والمحبة . وهذه مهمة البيت قبل أن تكون مهمة المدرسة .

أما مدة المصاحبة . وهى التى تعنى الشباب كثيراً . فقد انمحت من حساب الأسرة العصرية . فللشباب أصدقاؤه . ولا سبيل لأن يتخذ أباه واحداً منهم يأنس إليه . ويفضى إليه بمتابعه ومشاكله . وللشابة صديقاتها . وقليل من الأمهات من يجعل ابنته الشابة صديقة له تأمنه على سرها . وتبوح له بما يجول بخاطرها . وما بين الرابعة عشرة والعشرين مرحلة حرجة فى سن الشبان والشابات . ومن ألزم الأشياء فيها الرعاية الحانية والنصح الرقيق .

* * *

إن على الأسرة واجبات نحو الشباب . ومن العسير أن يحل غيرها محلها فيها . ولها رسالة لا بد أن تؤديها . ولئن قصرت فيها فإنما تقصر فى حق نفسها أولاً ، ثم فى حق الله والوطن ثانياً . وأنا لا أنكر أن الحياة أصبحت تلقى على الأبوين أعباء لا سبيل لها للتخلص منها . فالأب يعمل من جانبه . والأم

تعمل من جانبا ، وقل أن يجمع بينهما عمل واحد . وحالت
 النزعة الاستقلالية والمساكن المنعزلة دون الجد والجدة . إن
 وُجدا ، أن يقوموا ببعض الواجب نحو صغار الأبناء . ولم تتوفر
 لدينا بعد دور الحضانة الملائمة التي تستطيع أن تسد بعض هذا
 النقص - وما أحوجتنا أن تتوسع فيها . وأن نحكم الإشراف
 عليها ، فقد أصبحت ضرورة لازمة للأم العاملة - على أنه
 ليس في وسعها أن تحمل تماما محل رعاية الآباء والأمهات .
 ومن الخطأ أن يركز إليها وحدها ، كما كان يُصنع من قبل مع
 المرافقات والمرضعات .

إن حياتنا الأسرية عامة في تطور ملحوظ . وعلينا أن
 نسايره ونتعده ، وإلا فقدت الأسرة وظيفتها . وعجزت عن
 أداء أهم واجباتها . وعلى الأب والأم أن يذكرنا دائما أن
 عملها لا يشفع لها مطلقا في أى تقصير نحو تربية أبنائها .
 وفي وسعها أن يلائما بين العمل وواجبات الأبوة والأمومة .
 وحذار أن نقع فيها وقعت فيه الأسرة الغربية .

٣- الشباب والمدرسة

المدرسة ركن هام من أركان المجتمع ، هى مبعث النور والعرفان ، ووسيلة كبرى من وسائل إعداد النشء لمواجهة أعباء الحياة ، وبها يقاس الرقى والمدنية .

وكانت بالأمس مقصورة على عدد من التلاميذ الذين أتاحت لهم فرصة التعلم ، ومكنتهم ظروفهم المالية من تحمل نفقاته . أما اليوم فقد أصبح التعليم العام واجباً من واجبات الدولة ، تضطلع بأعبائه كلها ، وتفرضه على أبناء الشعب جميعاً ، وتحاول نشره ما استطاعت . وهناك أمم استكملت وسائل تعليم النشء منذ زمن بعيد ، وليس فيها أمى واحد ، ولا طفل لا يجد له مكاناً فى معاهد التعليم . وهناك أمم أخرى لا تزال على الطريق ، وتحاول أن تستوعب مدارسها أبناءها جميعاً ، وأن توفر لهم المكان اللائم ، والمعلم الصالح ، والكتاب النافع .

ولاشك في أن التعليم في مقدمة الخدمات العامة التي
تضطلع بها الدولة ، وكل ما ينفق عليه بناء وتكوين .
وكسب لثروة بشرية هي ذخيرة الأمة وعدتها . وكل عائق في
سبيل نشره جنائية على المجتمع ، وعدوان على مستقبله ،
ووقوف في طريق تقدمه ، ونجاح الأمم اليوم بقدر ما توافر لها
من علم ومعرفة . وتقوم حضارتنا الحاضرة في مظاهرها المختلفة
على العلم والتكنولوجيا ، ولابد لنا أن نتسلح لها بسلاح ملائم .
وكنا بالأمس نقنع بتعلم القراءة والكتابة ، وبعض مبادئ
الحساب ، أما اليوم فتحتاج تربية الشعب إلى ثقافة أوسع
ومادة أغزر . ولا نزال نذكر ما كان للشهادة الابتدائية من
شأن بيننا في عالم الوظائف والألقاب ، وها هي ذه قد
اندثرت . وأصبحت في خبر كان . وتلتها الشهادة
الإعدادية ، وهي في سوق الوظائف العامة بين الحياة
والموت ، ولا تزيد عن مرحلة انتقالية من مراحل التعليم
العام .

وإذا كنا نتحدث عن المدرسة . فإننا نقصد بها معاهد
التعليم على اختلافها ، بين ابتدائية ومتوسطة . ثانوية
وعالية . علمية وفنية . نظرية وعملية . وفي المدرسة يقضى

الناشئ قسطاً غير قليل من زهرة حياته ، لا يقل عن ست سنوات هي مدة الالتزام ، وكم تتمنى أن تصعد هذه المدة إلى عشر سنين ، وأن تنال القرية حظها من العناية والتعليم ما تنال المدينة على السواء . وقد يمتد التعليم في المرحلتين الثانوية والعالية إلى ثمان عشرة سنة ، وفي عشر سنوات أو ثمان عشره إن أحسن استخدامهما ، نستطيع أن نكون جيل المستقبل . وأن نعهده إعداداً سليماً . وهذا ما لم نوفق إليه بعد . فتخرج المدرسة الابتدائية أحياناً شبه أميين . لا يلبثون أن ينسوا القراءة والكتابة بعد عام أو عامين . ويضيق صدر المدرسة الإعدادية عن عدد غير قليل من التلاميذ . وتشكو المدرسة الثانوية من ازدحام الفصول وكثرة العدد الطاغية . وتزداد مشكلة العدد تعقيداً في التعليم العالى والجامعى .

وتضطلع المدرسة بأعباء شتى . اصطللحنا على أن نسميها التربية والتعليم . فعليها واجب تربوى إن قصّرت فيه ضاع جانب كبير من مهمتها . عليها أن تبنى الجسم والخلق . كما تغذى العقل والفكر . فتعنى بالتربية البدنية . وترعى صحة التلاميذ . وينبغى أن تزيد هذه العناية بتقديم سنّ الطفل . فيعد لكل مدرسة ملعبها . وتنظم لقاءات رياضية بين أبناء

المدارس المختلفة . وتعتبر التربية البدنية باختصار جزءاً أساسياً من رسالة المدرسة ومهمتها . ولا بأس من وجبة غذاء كافية . وبخاصة في البيئات التي لا تستكمل فيها وسائل التغذية . ونتساءل حقاً هل تحظى مدارسنا الابتدائية والثانوية بهذه التربية البدنية حظوة كاملة ؟ أخشى أن يكون ضغط الأعداد قد قضى على الملاعب في كثير من المدارس . وأن يكون تلاحق الدروس قد طغى على صحة الأبدان . ومن بين مدارسنا الثانوية ما كان له في الماضي نشاط رياضي ملحوظ .

وليست التربية الخلقية والروحية بأحسن حظاً من التربية البدنية . وتكاد تهملها المدرسة . ولا تعدّها من رسالتها . ونتساءل هنا أيضاً هل ترعى المدرسة الابتدائية جانب الخلق والسلوك بقدر ما كان يرعاه سيدنا في « كتاب » القرية ؟ وهل ترى فيها العواطف الكريمة والإحساسات الصادقة تربية كافية ؟ إن مما يؤسف له أن العناية بهذه العواطف في ضعف متزايد . وتقل كلما تقدمت سن الناشئ . فهي في المدرسة الثانوية أضعف منها في المدرسة الابتدائية . ولا تكاد تلحظ في الدراسة العالية . ولا سبيل إليها إلا بتربية دينية ، وقدوة حسنة . وإشراف مباشر . ولن يتحقق ذلك على وجه أكمل

إلا إن عادت الفصول المدرسية إلى أعدادها المقبولة . وبخاصة في مراحل التعليم الأولى - وحين ذاك يستطيع المعلم أن يتصل بتلاميذه اتصالاً أقرب وأوثق .

ولن أقف طويلاً عند مهمة المدرسة التعليمية . فالحديث عنها طويل . والشكوى منها تتردد دون انقطاع ، وقصورها في نمو مطرد . ولا أظن أن أحداً ينكر أن غالبية الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية اليوم في مستوى أدنى مما كان عليه أقرانهم في الربع الثاني من هذا القرن . ومن الظلم أن يلقي وزر هذا على المعلم وحده - بل للبرامج ، ومواد الدراسة ، والكتب . وأبنية المدارس وفصولها ، وعدد التلاميذ في كل فصل . ونقص المعامل والأجهزة والآلات . لذلك كله شأن كبير في ضعف التعليم العام في مراحل المختلفة ، وعجزه عن الوفاء بالإعداد المنشود . والمسئولون عن التعليم يدركون ذلك تمام الإدراك . ويرغبون في تدارك النقص ورفع المستوى . وكلنا رحاء أن يوفقوا إلى ما ينشدون .

* * *

وعندنا أن أزمة الشباب التي نشكو منها اليوم ترجع بوجه خاص إلى نقص التربية الخلقية والروحية . ولاشك في أن الأسرة والمدرسة مقصرتان في أداء هذا الواجب تقصيراً ملحوظاً . ولن يستقيم البناء إلا إذا صلح أساسه . والمجتمع الكبير ثمرة وصدى لهذه المجتمعات الصغيرة . ونتساءل : هل في وسعه أن يتدارك هذا التقصير ؟ هذا ما سنعالجه في الحديث المقبل .

٤ - الشباب والمجتمع

في كل مجتمع قطاعاته المختلفة من شباب وكهول وشيوخ . وفيه طوائفه المتميزة من زراع وصناع وتجار . والمجتمع السليم هو الذي يعرف كيف يلائم بين هذه الطوائف والجماعات . فيحدد واجباتها . ويحترم حقوقها . ويخلق منها وحدة كاملة هي وحدة الأمة والوطن . ودون أن أعرض لمختلف هذه النواحي أكتفي بأن أشير إلى أننا كنا إلى عهد غير

بعيد لا نقيم وزنًا لعالم الطفولة . ولا نلاحظ ما يتطلبه عالم الشباب . مع أنها الحجر الأساسى فى بناء الأمة . وأذكر أنى دعوت يومًا فى توزيع ميزانية الخدمات العامة إلى أن يكون للطفولة والشباب فيها الحظ الأوفى .

ولاشك فى أنا أخذنا نعى بعالم الطفولة . وإن كانت هذه العناية لم تنتشر فى الريف بعد . وأطفاله يَكُونون الغالبية العظمى من أبناء الشعب . فأعدنا فى المدن والعواصم دور الأمومة ومراكز رعاية الأطفال . وهيانا لهم رياضًا ومعاهد خاصة . ونشأ بيننا فى اختصار وعى وشعور بأن للطفولة عالمًا يحسب حسابه . ويتعهد على نحو خاص . ودخل فى ذهننا أيضًا أن للشباب عالمًا غير عالم الكهول والشيخوخة ، وأن له نشاطًا ينبغى أن يوجه توجيهًا سليمًا ، وإلا انقلب على عكس المراد منه . فأنشأنا له أندية ومعسكرات ، ونظمنا له أسفارًا ورحلات . وعيننا بوسائل الترفيه عنه وتسليته . واضطلعت بذلك جمعيات ومنظمات ، وقامت عليه مصالح وإدارات . ولم تلبث هذه أن حوّلت إلى «وزارة الشباب» . وهذه عناية نقدرها قدرها ، ونطلب المزيد منها . وما أجدر أبناء اليوم ورجال المستقبل أن يحفظوا بذلك .

ونحرص على ألا تغطي في هذا المصهار الأهداف السياسية على الأهداف التربوية ، فنتحول منظمات الشباب إلى خلايا للدعاية السياسية والتكتلات الحزبية . وأنا لا أنكر على الشباب أن يعنوا بالشئون العامة ، وأن يتعرضوا للقضايا السياسية الكبرى . إلا أنه من سبق الحوادث أن يكونوا محترفين ، وأن يتخذوا من السياسة مهنة . ولا أزال أذكر أنى خضت ، وأنا شاب ، مع الخائضين في ثورة سنة ١٩١٩ ، واشتركت في نشاطها ومظاهراتها . واعتقلت زمناً ، وما إن خرجت من معتقلي حتى عدت إلى درسى كما كنت . وما تصورت يوماً ، وأنا طالب . أن من حق أن أدبر الشئون السياسية أو أن أزعج أن فى وسعى أن أحركها . والخطر دائماً فى الغلو ومجازة الحد . وفى طغيان الأحداث العارضة على مهمة المرء الأساسية .

وجدير بالقائمين على أمر الشباب أن يعنوا أولاً بسلوكهم وتربيتهم الخلقية ، ليغرسوا فيهم روح الأخوة والمحبة ، والتعاون والتعاضد . ويرغبوهم فى البذل والعطاء ، ويحملوهم على إثارة المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ويدعوهم إلى الفهم والتفاهم ، والعدل والمساواة . والتسامح والتعاطف . وهم

أيضًا في حاجة ماسة إلى تربية روحية ، تطمئن إليها قلوبهم .
وترتاح لها ضمائرهم ، ويمتاز سنهم بعاطفة دينية متأججة ،
وعلينا أن نغذى هذه العاطفة بغذاء صالح يبعد بهم عن
التزمت وضيق الأفق ، ويحميهم من المجون والانحراف .
وحدثني صديق فرنسي كاثوليكي أنه كان لا يحرص على
الذهاب إلى الكنيسة للصلاة يوم الأحد ، وما إن شبّ أبناؤه
حتى التزم بالذهاب معهم كل أسبوع . وما أحوج الشاب إلى
ضمير حتى يؤمن بالحق ويقدر الواجب ، وما أحوجهم أيضًا
إلى أن ترى فيه رقابة ضمير تلزمه بالفضائل وتصرفه عن
الرذائل ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر فلن تنفعه الزواجر .
والمؤمن الصادق يخشى الله قبل أن يخشى الناس ، ويؤدي
واجبه مرضاة لضميره قبل أن يرضى الآخرين . وعلينا أن
نضرب له المثل في الأخذ بالمبادئ السليمة واحترام القيم
السامية ، ونقدم له قدوات حية ونماذج سلوك عملية ، وإن
لم نوفق في ذلك فالذنب علينا لا عليه .

والواقع أنه ليس ثمة شيء أدعى إلى الاضطراب والبلبل في
نفس الشاب من أن يرى في مجتمعه الكبير أفعالاً تناقض
الأقوال ، وخداعًا ونفاقًا ، وتضليلًا ومغالطة . ومن الخطأ أن

يظن أن شيئاً من ذلك يخفى عليه ، بل هو يدركه بفطرته
 السليمة ، ويمقته سراً أو علناً . ولا شيء أدعى لسخط الشباب
 من الظلم الصارخ والمحاباه الجائرة . يستنكرون ذلك كيفما كان
 مصدره أو من يستفيدون منه . والمدينة الفاضلة جديرة بأن
 ينشأ فيها شباب فضلاء ، وما يزع السلطان أكثر مما يزع
 القرآن . وزلة الوالى أو الرئيس بلقاء مشهورة . وبعبكس هذا
 تتيح المدينة الجاهلة الفرصة للمحرفين والأشقياء . والمنبت
 السوء لا يخرج منه إلا نبات سيئ . وللمجتمعات البشرية
 خيرها وشرها . ولا يفوتنى أن أشير أخيراً إلى وسائل الإعلام
 من صحافة وإذاعة ، ومسرح وسينما . ولها كلها أثرها وتأثيرها
 فى حياة الشباب واتجاهاتهم . وعلى القائمين عليها مسئوليتهم فى
 تقديم ما يلائم من قول أو صورة أو تمثيل .

* * *

فصلاح شبابنا واستقامته فى أيدينا . وفساده وانحرافه فى
 قدر كبير منه من صنعنا ، إن فى البيت والمدرسة ، أو فى
 المجتمع العام . وخير سبيل للأخذ بيده وتقويمه أن تقدم له
 قدوه صالحة ، وقيادة نافعة . وما أقل هذه القيادات وأضعفها

في مواقعها المختلفة ، وعلينا أن نهض بها وننميها ، وإلا خرج الشباب من أيدينا ، وعزت علينا استعادته .

٥ - الشباب والقراءة

القراءة هواية ملحوظة لدى كثير من الشبان - وفيها توجيه وإرشاد ، وثقيف وترويح ، من أولع بها لا يحس بوحدة قط ، وقديماً قالوا : « وخير جليس في الزمان كتاب » . وتتطلب القراءة مرانا ودربة - وإلغا وعادة - وتنوعاً وتجديداً - وتخيراً وملاءمة . فهي ركن من أركان تعليم الناشئين ، وواجب من واجبات تربيتهم ، ويقع عبء هذا الواجب على البيت والمدرسة معاً ، ويتحمل المجتمع منه نصيباً غير قليل . والشباب الذي يحسن القراءة ويحبها يتدارك كثيراً مما فاته ، وينمي معلوماته باطراد .

وعلى الأسرة أن تيسر لأبنائها وسائل القراءة الرشيدة ، وأن تحبهم فيها ، وتتخير لهم أحسن الكتب وأنسبها . فتفتح أمامهم

الطريق . وتوجههم التوجيه السليم ، وتشرف في غير ما تجسس على ما يقرأون . وفي وسعها أن تجعل منهم قراء ناجحين . وأن تزيد معلوماتهم باستمرار . وعلى نحو ما يقرأ الآباء ينشأ الأبناء .

وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه
ولا تقتصر القراءة في البيت على الكتب والواجبات المدرسية ، بل ينبغي أن يضاف إليها قراءات أخرى تدفع إليها الرغبة لا الرهبة ، وتنمى حب الاستطلاع . وإذا كانت الأسرة تحرص على أن تقدم لبنها أجود الطعام وأجمل الثياب ، فعلها أيضاً أن تتخير لهم أسلم الكتب وأصحها ، وإلا سرت إليهم عدوى الأفكار ، وهى ليست أقل خطراً من عدوى الأشخاص . وما أخرج شبابنا إلى قراءة سير كبار الرجال ، ففيها قدوة عملية صالحة ، تغذى الروح وتهذب الخلق .

وواجب المدرسة في هذا لا يقل عن واجب الأسرة ، فعليها أن تعد مكبات حرة تتناسب مع أعمار الناشئين وأطوار نموهم ، وأن تضعها تحت تصرفهم . وتأخذ المدارس الحقة نفسها بذلك ، ففيها مكبات للطفولة ، وأخرى لسن البلوغ

والمراهقة ، وثالثة لمرحلة الشباب . ويجد فيها التلاميذ غذاءً صالحاً لأرواحهم وعقولهم . وملئاً لأوقات فراغهم . وهى ولاشك تصرفهم عن أمور ضارة ، ونحن نلاحظ جميعاً أن الطفل أو الشاب إذا وجد ما يستطيع قراءته شغل به عن كل شىء . ويحس رجال التربية بنقص هذه المكتبات فى مدارسنا ، ولابد لنا أن نتداركها . ونحن نشكو فى مسابقاتنا وامتحاناتنا من نقص الثقافة العامة بين أبنائنا وبناتنا . وهذه هى سبل تكوينها وتحقيقها .

وعلى المجتمع أخيراً واجبه فى تحبيب الشباب فى القراءة . فيقدم له الصحف والمجلات المشوقة ، ويتخير له أنسب الموضوعات وأنفعها ، ويسر له أمر الكتاب القيم ، فيجيد طبعه وإخراجه ويخفض ثمنه ، ويزود به الأندية وأماكن لقاء الشباب ، أو مكتبات المدينة والقرية التى يتردد عليها الجمهور . وهذه ناحية ينقصنا فيها الكثير ، وما أحوجنا أن نزعها إن كنا نريد لشبابنا أن يقرأ ، وأن يقرأ قراءة نافعة .

* * *

والواقع أن شباب اليوم قليل الرغبة فى القراءة . يهملها إلا إن فرضها عليه درس أو امتحان ، ولا يكاد يستطيع منها

إلا الخفيف والرخيص . وأصبحت القراءات الرخيصة داء
استشرى . يتسابق في وضعها بعض المؤلفين . ويسف فيها نفر
من الكتاب . يغذون بها شهوة جامحة ويستغلون جانباً من
جوانب الضعف الإنساني . وأين شبابنا اليوم من المؤلفات
الجمادة لأمثال المنفلوطي ، ومصطفى صادق الرافعي . أو
عماس العقاد والدكتور طه حسين ؟ وقد كان الشباب يقبل
عليها أيما إقبال .

وفي كلمة واحدة إن لنا تقاليد صالحة لا بد أن نعود إليها .
ومعالم لا بد أن نهتدى بها . وإلا ضللتنا الطريق .

٦ - الشباب والحرية

حديثنا اليوم عن حرية الشباب . وأظنكم تتفقون معي
على أن الحرية غالية . نادى بها تعاليم السماء . واستمسك
بها أهل الأرض . ولانزال نجد حلاوة في كلمة عمر بن

الخطاب رضى الله عنه : « ما لكم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . ونحن نقدر الحرية فى مختلف صورها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل . ونريد بها أن تكون شاملة ، لا فرق فى التمتع بها بين شاب وشيخ ، ولا بين فرد وجماعة ، ولا بين عربى وعجمى ، ولا بين أبيض وأسود . والحرية شئ غير الفوضى وغير الإباحية . وما يؤسف له أنا كثيراً ما نخلط بينها .

وليس لشباب اليوم أن يشكوا من نقص حريتهم . فقد نالوا منها قسطاً غير قليل فى البيت والمدرسة والجمع . وربما أسرفوا فى هذا إسرافاً يجاوز الحد . وهم دون نزاع ينعمون بحرية لم ينلها آباؤهم ، ونحن نذكر تقاليدنا القديمة التى كانت تحرم على الأبناء أن يجلسوا فى مجالس الآباء ، أو أن يبدوا أمامهم ملاحظة . انقضى هذا كله ، ولم يبق منه إلا بقايا قليلة فى الريف ، وهى بدورها إلى الزوال . وإنا لنرحب بهذا التطور . ونؤيد التربية الاستقلالية التى تتفق مع حكمة العربى القديم التى أشرنا إليها من قبل . وهى : لاعب ولدك سبعا . وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولكننا نريد حرية فى طاعة ، واستقلالاً فى احترام . ولن يبق

للآباء شيء إذا فقدوا طاعة أبنائهم واحترامهم . وعليهم أن يغرسوا ذلك في نفوسهم بتصرفاتهم الحازمة الحكيمة . وإلا فقدوا معاني الأبوة .

إذا كان رب الدار بالداف ضارباً
فلا تلومن الصغار على الرقص

وحرية التلاميذ في مدارسهم مطلوبة ومحبة ، تفتح آفاقهم وتكون شخصيتهم . وتملؤهم ثقة بأنفسهم . ويستمسك بها كبار المربين ، ويحرصون على أن ينشأوا تلاميذهم عليها . وأذكر أن واحداً منهم قضى بعض الوقت ليعلم شاباً أمام زملائه كيف يرفع رأسه . وينصب قامته ، ويتصرف تصرف الواثق من نفسه . ولكننا نريد للشباب حرية في نظام . وكرامة في طاعة واحترام . وهذه هي التربية الاستقلالية الصحيحة . أما أن تنقلب الحرية بين الشبان إلى فوضى واضطراب ، فذلك عدوان على التعليم والتربية . وتفويت لرسالة المدرسة . ولا بد من قسوة أحياناً تضع الأمور في نصابها . وتشعر المخطئ بخطئه .

* * *

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما
 فليقس أحيانا على من يرحم
 أما أن نتملق الشباب دائما مصيبين أو مخطئين . فإننا نسيء
 إليهم بقدر ما نسيء إلى أنفسنا .

وللشباب شأنهم في المجتمع . يرجى منهم أن يكونوا مثال
 الطهر والاستقامة ، ودعاة الحق والفضيلة . ذلك لأنه
 لم تدنسهم بعد أوزار الحياة . ولم تهتز أمامهم المثل العليا .
 فإذا ما انعكس شأنهم ، وأصبحوا هم أنفسهم مبعث شر
 ومصدر فساد . يخرجون على العادات والتقاليد السليمة ،
 وينكرون القيم والمبادئ السامية ، لا يرعون الله ولا يرعون
 الناس ، فتلك ولاشك محنة كبرى وخيبة أمل عظيمة . وما
 أغنانى أن أشير إلى بعض الأمثلة كجماعة الخفافس . ومدمني
 الخمر والميسر ، وعصابات التشرذم والنهب . وأسوأ ما في هذا
 أن يبرر باسم الحرية ، وأن يصور بصورة التقدم والمدنية ،
 وكأننا أصبحنا لا نفرق بين الحرية والإباحية . ولا بين
 الحضارة والهمجية . ولكل شاب حرته ، ولكن في حدود
 الشرع والقانون ، ودون خروج على الأدب واللياقة ، فإن
 تجاوز هذا فذلك تمرد وعصيان .

ليس شيء أحب إلى الآباء من أن يروا أبناءهم خيرا
منهم ، ونحن جميعاً نتمنى للأجيال الصاعدة أن تكون على
مستوى الواجب والمسئولية . فلنعدّها لذلك ، تلك أمانة في
أعناقنا ، والله يأمرنا أن نؤدي الأمانات إلى أهلها .

* * *

الحلقة الثانية بناء الإنسان المصري

١ - بناء الإنسان المصرى

الإنسان المصرى هو الدعامة الأولى للمجتمع . ولا سبيل إلى نهوض سياسى أو اقتصادى أو حضارى بدونه . ولا شك فى أنه جدير بأن نقف عنده طويلا . لاسيما وتطوره ملحوظ . وتأثره بالعوامل الداخلية والخارجية كبير . وقد فعلت به الأحداث السياسية والاجتماعية فعلها . ويعيننا أن نبين كيف كان موقفه من هذه الأحداث .

والواقع أنا كثيرًا ما تحدثنا عن ثرواتنا الطبيعية والصناعية . ودعونا إلى تنميتها بشئى الوسائل . ولم تل الثروة البشرية ما تستحق من عناية . ولم ننمها بعد التنمية المنشودة . وأصبحنا نحس بأن أزمنا الحقيقية هى أزمة الإنسان المصرى قبل كل شئ . فى البيت والمدرسة . فى القرية والمدينة . فى المزرعة والمصنع . والمتجر . فى الهيئات والجماعات . أوفى المجتمع الكبير والوطن كله .

وبما زاد هذه الأزمة حدة ذلك التطور السريع الذى نمر به - فيتابع موكب الحياة سيره دائماً - ولا سبيل لأن نتخلف عنه . ولم يبق اليوم محل لأن نجادل فى هذا التطور أو أن نعارضه - والمهم هو أن نواجهه مواجهة صادقة ندفع بها شره ، ونفيد من خيريه والجمود أمامه موت وتخلف . والغلو فيه اضطراب وبلبلة . وربما أدى إلى خراب ودمار .

ودعوات الإصلاح الصادقة هى التى تأخذ الأشياء فى يسر وهودة - فتأتى وتتدرج - تلاثم بين الحاضر والماضى . وتعد للمستقبل . وطبيعة الأشياء تأتى الطفرة . ومن نسى ماضيه نسى نفسه . وعز عليه أن يتعامل مع حاضره . وفقد التوازن الضرورى لحياة الفرد والمجتمع . والثورات والانقلابات من أدوات التطور ووسائله . ولا تخلو من هدم وتدمير . ولكنها إن وقفت عند ذلك كانت خطراً داهماً وشرّاً كبيراً . وكم من ثورات عقيمة لم تعقب إلا الخراب والدمار . والثورات المنتجة هى تلك التى تهدم لتبنى . وتغير وتعديل لتجدد وتصلح .

والإنسان المصرى الذى أقصده هو الفرد العادى ، بصرف النظر عن شبابه وشيخوخته ، عن غناه وفقره ، عن ماله وجاهه ، عن عمله ومركزه ، ولا بد أن يتوافر لهذا الفرد قدر

من القيم الإنسانية ، كالصدق والأمانة ، والتبذل والنزاهة .
والوفاء والإخلاص ، والجد والعمل ، وحب الأهل
والوطن ، وتقديس الحق والواجب . وبقدر ما تكتمل هذه
القيم لديه تكمل إنسانيته ، ويصبح عضوًا صالحًا في مجتمع
صالح . وإن فقدوا عاد بنا إلى الجاهلية الأولى ، فلا دين
ولا ذمة ، ولا احترام لشرع أو قانون ، ولا نزول عند عرف
أو تقليد ، ولا رعاية لمصلحة خاصة أو عامة . وحياة الأمم
ونهبها وتقدمها موقوف ذلك كله على حظها من أفراد
اكتملت فيهم معاني الإنسانية .

والإنسان عرضة للتغير والتبدل ، وخاضع لسنة النشوء
والارتقاء ، أو للتدهور والانحطاط . والحضارات البشرية
الكبرى خير شاهد على ذلك ، ويكفي أن نشير إلى اثنتين
منها : واحدة في التاريخ القديم ، والأخرى في التاريخ
المتوسط . ففي التاريخ القديم بلغت الحضارة الإغريقية أوجها
في عهد بركليس ، وأصبحت أثينا منارة العالم الإغريقي ، لما
اتسم به أهلها من علم وحكمة ، وما ساد فيها من قيادات
فكرية وروحانية . ووصلت نظمها الديمقراطية إلى درجة
ملحوظة . ثم جاءت الحروب البلوبونيزية فأضعفت شوكتها ،

ونافستها مقدونيا ، وأخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً . ولم يبق لها
إلا مجد أدبي وفكري . لم يلبث هو بدوره أن تدهور وتلاشى .
وبعد الإنسان الأثيني عن قيمه ومعاييره .

وفي القرون الوسطى قامت الحضارة الإسلامية على مبادئ
سامية وتعاليم سماوية . تعبد بالإنسان ، وتوجه إليه الخطاب
رأساً . وقد أقبل المسلمون على دينهم ودنياهم بإيمان عميق
وروح فتية ، وانتشرت دعوتهم في العالم شرقاً وغرباً . واكتسى
أبناء الصحراء بكساء جديد . وأصبحوا بناءً مجد وحضارة .
حاربوا الفساد والطغيان ، ونادوا بالعدل والمساواة . والشفقة
والرحمة ، وضربوا مثلاً عالياً في الإخاء والمحبة . ولم يكونوا في
فتوحهم طغاة ولا جبابرة ، بل حرصوا قبل كل شيء على أن
يكونوا مربين ومصلحين . واعتنق الإسلام شعوب مختلفة .
وأبناء ديانات متعددة . كما اعتنقه ورثة حضارات قديمة شرقية
وغربية ، ولم يمض على الدعوة الإسلامية نحو قرن ونصف
حتى خفقت رايبتها في أركان العالم المعروفة حين ذاك . في آسيا
وأفريقيا وأوروبا . وقامت على دعائمها حضارة جمعت بين
العلم والإيمان ، ووفقت بين العقل والنقل . أخذت عن
الحضارات السابقة ما أخذت ، وأضافت إليها ما أضافت .

وأصبحت ذات طابع خاص يميزها من غيرها ، وبرهن المسلمون على تسامح قل أن نجد له نظيراً في حضارات أخرى . وقدر لهذه الحضارة أن تعمّر عدة قرون ، وأفادت منها الثقافات المعاصرة لها . وعولت عليها . ومهدت دون نزاع للنهضة الأوروبية الحديثة .

ثم عدت عليها عوادي الزمن ، وغفل المسلمون عن تعاليمهم ومبادئهم . فطغى قورهم على ضعيفهم . واعتدى كبيرهم على صغيرهم . وأهملوا حقوق الله والوطن ، فأفسحوا السبيل للغزاة والمعتدين . وفتحوا الباب للمستعمرين . نسوا الله فأنساهم أنفسهم . وقضوا نحو خمسة قرون في جهل فاحش وظلمة قائمة .

* * *

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ في العالم الإسلامي بعامة ، وفي العالم العربي بخاصة . وعى جديد ، وهبت نسمة من انتعاش ويقظة . ونالت مصر من ذلك حظها ، فبدأت نهضة حديثة ، وأخذت تصلح وتجدد وتبنى وتعمّر . ولها في

القرن الماضى خطوات يعتد بها ، ولا يصح بحال إهمالها .
والا تنكرنا لماضيها وتناسينا أجدادنا . وفى النصف الأول من
هذا القرن استعادت مصر نشاطها . وتلاحقت خطواتها .
وإن بدت وثيدة . وفى الخمس والعشرين سنة الأخيرة شئنا أن
نستحث الخطى . وأن نتدارك بعض ما فات . وكثيراً
ما تعجلنا السير ، وقفزنا على غير هدى . وبلينا بموجة عاتية
تستهين بالماضى ، وتخرج على العرف والتقاليد . وتعدو على
القيم والمثل العليا . ووقعنا فى بلبلة واضطراب طغيا على الإنسان
فى قوله وعمله . فى حكمه وتقديره . وسنعرض لذلك فى
أحاديثنا المقبلة .

٢ - الإنسان المصرى فى أسرته

سأحدثكم الليلة عن الإنسان المصرى فى أسرته ، والأسرة
بوجه عام أهل الرجل وعشيرته ، يرتبط أفرادها برباط القرابة
والنسب ، ويوثق بينهم عشرة متصلة وعواطف مشتركة .

ولا حياة لأسرة بدون حب وتعاطف . ولا قيمة لها إن دب فيها ديبب الحقد والحسد . وغداؤها الدائم أخذ وعطاء ، وتساند وتعاون . ودعامتها الأولى شعور بالانتماء إليها ، فإن فقد هذا الشعور أصبحت وكأن لا وجود لها .

وهى لبنة هامة فى بناء المجتمع ، فإن صحت صحت معها ، وإن فسدت قام البناء على غير أساس ، وتخضع لقانون التطور ، كانت فى الماضى كثيرة العدد متشعبة الأطراف ، أشبه ما يكون بالقبيلة أو العشيرة . متميزة الشخصية ، تحمى حماها ، وتدافع عن نفسها . وليس لأى فرد من أفرادها أن يخرج عليها . وهى المسئولة عن سلوكه وتصرفاته . ثم أخذ نطاقها يضيق شيئاً فشيئاً . فمن الأسرة الأم نشأت فروع وأسر متعددة .



وقد مرت الأسرة المصرية بهذا التطور . فرأينا الأسرة الكبيرة التى يجمعها منزل واحد ، ومائدة واحدة ، وكثيراً ما سميت دروب القرية وأحيائها بأسماء الأسر التى تقطن فيها . وأدركنا فى المدينة أيضاً بيوتاً يضم كل واحد منها مائة شخص

أو يزيد ، على رأسهم الجد والجدة أو الأب والأم . وكم كان الأب أو الجد سعيدًا بأسرته يدلل أطفالها ويرى شبابها ، ويشرف على رجالها ونسائها ، الكلمة كلمته ، والرأى رأيه . يؤمن بأنه راع ، فيحرص على أن يضرب من نفسه المثل . وأن يكون قدوة لأبنائه . وقد نعمت قرانا لعهد غير بعيد بعدد من رؤساء الأسر الذين كانوا يفصلون في المنازعات ، ويفضون الخصومات ، ويحظون باحترام وتقدير . ويمكن أن يقال إن أربعة أو خمسة من هؤلاء الرؤساء كانوا يسهمون في تدبير شئون القرية على اختلافها .

ثم بدأ العقد ينصرم ، وتساقطت حباته ، وانقرضت الأسر الكبيرة أو كادت في القرية والمدينة . ولم يبق منها إلا عصبية كثيرًا ما أسىء استغلالها ، وأفسدت الصراعات السياسية والحزبية . فتنافس أبناء العمومة أو الخثولة في ميدان واحد ، وقضى على كثير مما كان للقرابة من قداسة واحترام . وانكماش الأسرة المصرية مجارة لتطور عام لا محل لأن نعترض عليه ، والمهم أن نواجهه المواجهة التي تلائمها . وأصبحنا أمام أسرة صغيرة لا تشمل إلا على الأب والأم والأبناء ، وليت هؤلاء الأبناء يبقون على وفائهم للآباء إلى النهاية .

ومسئولية الأسرة الصغيرة لا تقل عن مسئولية الأسرة الكبيرة ، وما يؤسف له أن هذه المسئولية بدأت تتلاشى وتكاد تنهار . ويقع وزر كثير من انحراف الشباب على الآباء . وسبق أن قلنا إن الأب راع في أسرته . فعليه أن يرعى أبناءه جسميًا وروحياً . وأدع جانباً التربية الجسمية على ما لها من أهمية . وأقف بخاصة عند التربية الروحية التي لا نقدرها قدرها . غفل عنها الآباء . وكأنها ليست من واجباتهم . ولا أزال أذكر حديثاً لى مع أبوين فرنسيين كانا يحرصان الحرص كله على الذهاب إلى الكنيسة مع ولديهما يوم الأحد من كل أسبوع . ولا يتخلفان عن ذلك قط . ويريان أنه واجبهما نحوهما إلى أن يرشدا . وهما بهذا يلتقيان مع تعاليم الإسلام تمام الالتقاء .

والواقع أن الأسرة هي البيئة الأولى للتربية الروحية . فعلى الوالدين أن ينشئا أبناءهما تنشئة فاضلة . فيريبيانهم على الصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة ، والتواضع وحسن المعاملة . وحب الله والوطن ، وألا يلقيا عبء هذا كله على المدرسة وحدها . وفي قدوتها العملية خير مثل يحتذى . وفي نصحتها وتأنيها خير واعظ وزاجر . وكما يكون الآباء يكون الأبناء . وقديماً قالوا : من يشابه أبه فما ظلم . وكثيراً ما تنسى الأم

مسئوليتها فى التربية الروحية والخلقية ، وقد تتصل منها ملقية
عبيها على الأب وحده . وعليها أن تعلم أنها - هى الأخرى -
راعية فى بيتها . وكل راع مسئول عن رعيته .

وفى تربيئنا المنزلية أخطاء كثيرة شائعة . أحب أن أشير إلى
أمثلة منها . وفى مقدمتها التدليل الزائد عن الحد . ولمرحلة
تصل إلى مدة طويلة . ولا نرى فيه خيرًا مطلقًا . لا للمدللين
ولا لآبائهم . ومن واجباتنا الأولى أن نعد أبناءنا للمستقبل .
ولحياة لا تخلو من عنف وقسوة ، وأن نحارب فيهم تلك الميوعة
المحقوته . ولا معنى لحياة لا تعرف إلا اللهو واللعب . ونخطئ
أيضًا فى التفرقة فى المعاملة بين الأبناء . فمنهم المحظوظ الذى
ينال كل ما يريد ، والمحدود الذى يحرم من كثير . وفى هذا
ما فيه من غرس بذور الغيرة والكراهية بين أبناء الأسرة
الواحدة ، وأوضح ما يكون ذلك فى حال تعدد الزوجات .
ولعهد غير بعيد كانت البنات شبه مهملات . ثم بدأ يحصلن
على كثير من حقوقهن ، وإن كانت الأسرة الريفية لا تزال
تشكو من هذه التفرقة . وأمر آخر هو الإعضاء عن المقوات أو
التشجيع عليها ، فيكذب الطفل أو يأخذ مال غيره ، ونُعْمِضُ

الطرف عنه أو نباهى به ، ونعده ماهرًا وشاطرًا ، وهذه ولاشك شطارة بغیضة مرذولة .

* * *

ونستطيع أن نقرر أن قدرًا غير قليل من طفولة الإنسان المصرى . بل من شبابه . ضائع بين البيت والحارة ، ضائع فى البيوت لقصور وإهمال من الأبوين على نحو ما أشرنا . لاسيما وقد جدَّ أمر آخر . وهو اضطلاع الأم بأعباء الحياة . تعمل صباحًا ومساءً فى سبيل لقمة العيش . ومادمننا نشجع المرأة العاملة . فلا بد أن توفر لأبنائها وسائل الحياة والتربية السليمة . وقد رآه غير قليل من طفولة الإنسان المصرى وشبابه ضائع فى الشارع والحارة . وهذه مشكلة اجتماعية خطيرة . وكما نشكو من جرائم الأحداث ، ونحن مسئولون عنها ، وليس شىء أضر بالطفل والشاب من الفراغ ، وإذا لم يملأ هذا الفراغ ملئًا صحيحًا . كان مدعاة للفساد والانحراف . ومن أغرب ما يلاحظ أن لدينا الآن حرقًا كالسباكة والنجارة وأعمال الكهرباء بدأننا نشكو من نقص اليد العاملة فيها ، ولدينا جموع غفيرة من الأطفال والشبان تعج بهم الحارات والشوارع

دون عمل مجد ، فهل من سبيل لأن ندرهم على حرفة نافعة
وعمل مفيد . هذا واجبتنا ، ولا يصح أن نقصر فيه .

٣- الإنسان المصرى فى مدرسته

يدور حديثنا الليلة حول الإنسان المصرى فى المدرسة ونحن
نعيش جميعاً فى عصر العلم والتكنولوجيا ، ونؤمن بأن الرقى
الحضارى فى أى مجتمع رهن بانتشار العلم والتعليم فيه . وقسمة
الدول إلى متقدمة ومتخلفة يرجع خاصة إلى حظ كل منها من
العلم والمعرفة ، ولاشك فى أن التعليم يرفع من قدر الإنسان .
ويزيد ثروة الأمة المادية والمعنوية . تلك حقائق تنبها إليها فى
أوائل القرن الماضى ، وبدأنا نهضة تعليمية شاملة . لم تقف
عند المرحلة الابتدائية ، بل امتدت إلى التعليم العالى . ولكنها
لسوء الحظ لم تسر فى طريقها إلى النهاية . فلم يرعها أبناء محمد
على رعايته لها ، وجاء الاستعمار فضيق حدودها .

ومنذ فجر القرن العشرين ونشر التعليم وإصلاحه من

أهدافنا الأولى ، فتوسعنا في المدارس الابتدائية والثانوية .
 أميرية كانت أو خاصة . وزدنا عدد المدارس العالية . وشاءت
 الأمة أن تكون لها جامعتها الأهلية على غرار الجامعات
 الأوروبية . وشغلنا بإصلاح التعليم الديني في الأزهر
 ومعاهده . وأصبحنا اليوم ، ولنا في كل قرية مدرسة أو
 مدارس ابتدائية ترمى إلى استيعاب أبنائها جميعاً من السادسة
 إلى الثانية عشرة ، وإن لم يتم هذا الاستيعاب بعد . ولنا في
 كثير من القرى مدرسة إعدادية ، وإلى جانبها فصول أو مدرسة
 ثانوية . وفي كل مدينة مدرسة أو مدارس ابتدائية وإعدادية
 وثانوية عامة أو فنية . هذا إلى واحد من المعاهد الدينية التي
 تشتمل على مراحل التعليم العام المتلاحقة ، وهي في ازدياد
 مطرد . وصعد عدد جامعاتنا في السنوات الأخيرة صعوداً
 ملحوظاً ، ونهدف إلى أن يكون لكل محافظة جامعتها . وكأني
 بالأزهر يرغب بدوره في نشر تعليمه العالي . فينشئ في
 الأقاليم جامعات أزهرية إلى جانب جامعاته الكبرى في
 القاهرة . وأعتقد أنا في حاجة ماسة إلى رسم سياسة موحدة
 للتعليم عامة والتعليم العالي بخاصة . وسبق لي منذ ثلث قرن أو
 يزيد أن وجهت النظر إلى هذا الازدواج ، ودعوت إلى
 مواجهته مواجهة صادقة .

ومنذ أن قلنا بمجانية التعليم . والإقبال عليه في مراحل
 المختلفة يزداد على كل تقدير . ولا يحل عام دراسي إلا ونشكو
 من عجز الأماكن عن الوفاء بحاجات التلاميذ . ويمكننا أن
 نلاحظ بوجه عام أن نحو ما يقرب من ثلث السكان يتردد الآن
 على معاهدنا ومدارسنا المختلفة . ويقضى فيها سنوات لا تقل
 عن ست . وقد تصعد إلى الخمس عشرة . وفي هذا ما يبين
 أهمية المدرسة في تكوين المواطن الصالح وابن القرن
 العشرين . وهذه هي النقطة التي أحب أن أقف عندها .

وللمدرسة مهمتان أساسيتان : تعليمية وتربوية . وقد كثرت
 الكلام حول المهمة الأولى . ويظهر أن العبء زاد علينا كثيرًا .
 وأصبحنا نشعر بأن المدرسة في وضعها الحالي لا تستطيع أن
 تؤدي هذه المهمة على وجهها . ويكفي أن نشير إلى الدروس
 الخصوصية المنتشرة في القرية والمدينة ، وهدفها الأول أن
 تكمل نقص المدرسة . أو أن تشير إلى مكافحة الأمية التي
 دعونا إليها منذ نصف قرن . ولم تسهم فيها المدرسة بنصيب
 ملحوظ ، فلم تقف الأمية عند الشيوخ والمسنين ، بل امتدت
 إلى الشباب والناشئين ، وكأن المدرسة تهدف إلى تخريج أميين .
 ولا أشك في أن القائمين على أمر التعليم أنفسهم يشعرون

بهذا ، ويرغبون في معالجته ، ونرجو لهم التوفيق .

وأؤثر أن أقصر حديثي على المهمة الثانية ، وأخشى أن أقول إن مدارسنا في مختلف درجاتها قد غفلت عن مهمتها التربوية ، ولا تتردد في أن تلقى عبثاً على البيت . وقد قلت في حديث سابق أن البيت يتصل هو الآخر من واجبه التربوي ، ويلقى به على كاهل المدرسة ، وبذا ضاع النشء بين الجانبين . والتربية الخلقية والروحية تقوم على أساسين : قدوة صالحة ، واتصال مباشر بين الأستاذ والتلميذ ، أو كما يقول الصوفية بين الشيخ والمريد . ولا أزال أذكر كتاب القرية ، على ما كان فيه من عيوب تعليمية ، فقد اكتملت لشيخه هاتان الوسيلتان ، فحاول ما استطاع أن يكون قدوة ، وحظى باحترام ملحوظ ، ولم يكن عبثاً أن يسمى «سيدنا» . واقتصر درسه على عدد محدود من التلاميذ قل أن يزيد على العشرين ، فكان يعرفهم عن قرب بأسمائهم وأسرهم ، ويكشف عن عقدهم ومشاكلهم ، ويتصل مباشرة بأولياء أمورهم . أنا لا أقول بالعودة إلى «كتاب» القرية ، ولكن قصدت فقط أن أستخلص منه بعض الدروس النافعة .

وما أحوجنا حقاً إلى أن نغني عناية خاصة بالقدوة الصالحة

في معاهدنا ومدارسنا . وعرفت أستاذًا جليلًا كان يرى أن يوكل أمر الروضة والمدرسة الابتدائية إلى المسنين من المعلمين والمعلمات ، طمعًا في هذه القدوة . ولا يتوقف الأمر في الواقع على السن وحده ، بل يعتمد أساسًا على السلوك والمثل الطيب . والقدوة قول وعمل ، ولا قيمة لقول يناقضه الفعل . فهل تحظى مدارسنا بهذه القدوة ؟ وهل نرعى سلوك الأطفال والشبان رعاية تامة ؟ إن وجد شيء من ذلك فهو جد ضئيل ، وربما قبل بضرب من الفكاهة والتندر . وأذكر شيئًا من شيوخ الربيع كانت تمتد رقابته في معهد عال إلى الزى والملبس ، والنطق والتعبير . فأين نحن من هذا ؟

أما الاتصال المباشر فقد أصبحنا ولا سبيل إليه إزاء تلك الأعداد الكبيرة في فصول المدرسة ، أو في مدرجات الجامعة . وكيف يتصل المعلم بأربعين تلميذًا أو يزيد في الفصل الواحد بالمدرسة الابتدائية أو الثانوية ؟ وأين يجد الوقت للتحدث معهم ومعاشرتهم معاشرة حققة ؟ وأنى له ذلك وأعباء الحياة تجتذبه يمينًا وشمالًا ؟ وما أشبه مدارسنا ومعاهدنا اليوم بالورش الصناعية والأسواق العامة التي لا نسمع فيها إلا ضجيجًا وجلبة ، فلا نحس بسلوك خاص ولا بحياة روحية . ومشكلة

العدد فى مدارسنا اليوم أصبحت خطيرة ، وحولت تعليمنا إلى قشور لا تغذى العقل ولا الروح فى شىء يذكر ، ولا بد أن نعود بفصول الدراسة إلى أعدادها المعقولة .

* * *

والمدرسة فى حاجة ماسة حقاً إلى جو خاص يميزها من الأجواء الأخرى . جو يسوده الهدوء والسكينة : تطمئن إليه النفس . ويعنى فيه بآداب السلوك قولاً وعملاً ، وبالتنويه بالأخلاق الفاضلة . ويتقديم النماذج الحقة للحياة العملية . ويكسى بكساء روحى واضح فيها يقدم للنشء من دروس وقصص . وما يعلم من طاعات وعبادات .

٤ - الإنسان المصرى فى القرية

نحن الليلة مع الإنسان المصرى فى القرية . وقد كانت هذه القرية ولا تزال دعامة المجتمع المصرى وصمام أمنه ، احتفظت بتقاليده . وقدست تراثه - نفرت من التطور السريع

المفاجئ . وأنكرت الاستهانة بمجد الآباء . وحالت دون
 طغيان المدينة الزائف ، وهذبت من حواشيه . ومن عاداتها
 وتقاليدها ما يرجع إلى مئات السنين ، بل إلى الآلاف ، ومن
 بين قرانا ما لانزال نلمس فيه مسحة من مخلفات قدماء
 المصريين . أما الطابع العربى فأشمل وأوضح ، وله بيئات
 لانزال نحرص عليه وتعتز به . وكثيراً ما شمخت بأنفها .
 وإلى عهد غير بعيد . يوم أن كانت معفاة من الجندية ، ويوم
 أن كانت لا تقر اختلاط الأنساب بين البدو والفلاحين . ومن
 حسن الحظ أن تلاشى هذا كله . وأصبح القرويون يعيشون في
 وحدة شاملة ، ويشعرون جميعاً بأنهم في آن واحد عرب
 ومصريون .

وقد مرت القرية المصرية بمحنة أخرى عانتها زمناً طويلاً .
 وتحملت في صبر وجلد ، ويا لها من مجتمع مسالم صبور . وتلك
 هى محنة الفلاح والتركى ، وهى تفرقة ترجع إلى قرون
 مضت . يوم أن كان الحاكم أو الوالى سيّداً ، والرعية
 مسودة . يوم أن كان يملك البر والبحر ، والكل خدم له
 وحشم . وقد فعل الزمن فعله في هذه التفرقة البغيضة .
 واستطاعت القرية أن تمتص هذا كله ، فنسى التركى

جنسيته . وأصبح مصريًا صميمًا ، ونسى الفلاح ما حلّ به من بطش وجبروت . ومصر من أقدر البلاد على امتصاص الغرباء ، لا يشعر الوافد إليها بوحشة . ولا يكاد يمضى عليه جيل أو جيلان حتى تمتصه هذه الأرض الطيبة . ويصبح وكأنه ابن من أبنائها الأصليين .

وابن القرية شديد الارتباط بترابها . يعشقه على القرب . ويحن إليه على البعد . وفي هذا ما فيه من التعلق والانتماء . وإلى عهد قريب ما كان يرغب في الرحلة بعيدًا عن وطنه . ولا يرحب بالنقلة . وإذا ما قدر له أن ينتقل أو يرحل لعمل أو ضرورة سرعان ما عجل بالعودة والرجوع . ولم تمتد الهجرة الخارجية إلى القرية كثيرًا . ووقفت في الغالب عند المدن والسواحل . وفي هذا ضرب من الحماية والصيانة . أما الهجرة الداخلية فتبادلة . وربما حملت دمًا جديدًا لا يخلو من نشاط وحيوية . ويقدر ما أخذت القرية أعطت . وربما كان عطاؤها أسخى . فغذت المدن القديمة والحديثة بغذاء لا ينقطع . وأمدتها بعمال وصناع . أو بصفوة من المتعلمين والمثقفين . ولا تكاد توجد مدينة مصرية إلا وفيها بصمات ريفية من أعالي الصعيد أو من أطراف الوجه البحرى . وخفت تلك التفرقة بين

الحضرى والريفى . وانمحت أو كادت تلك المقابلة بين الصعيدى والبحيرى .

ولاشك فى أن فى هذا التلاقى خيرًا وبركة . ومساواة بين أبناء الوطن الواحد . ولكن القرية لم تأخذ حظها من العمران والحضارة . وبقيت إلى عهد قريب شبه كم مهمل . فلم تجار المدينة فى ازدهارها . ولم يتوفر لها ما ينبغى من وسائل العيش والحياة . وكثيرًا ما هجرها من رحلوا عنها من أبنائها . وقد كانوا يحرصون بالأمس على أن يكون لهم فيها موطن وسكن . وزاد هذه الهجرة خطرًا أن بعض شيوخ القرى ومن كان لهم شأن فيها قد استهواهم بريق المدن . فنسوا قراهم نسيانًا تامًا وانصرفوا عنها . وفى كل ذلك ما يلقى أعباء جساما على الحكم المحلى الذى نأمل أن ينهض بالقرية نهضة حقيقية . وأن يزيل ما نلاحظه فيها من وصمة فى جبين الوطن كله . وأخشى ما نخشاه ألا تقدر الهيئات الإقليمية رسالتها حق قدرها . وأن يركز الحكم المحلى . هو الآخر . على المدن . وتبقى القرى فى زوايا النسيان .

وتعميم مياه الشرب . وبسط شبكة الكهرباء فى الريف من الوسائل الناجعة قطعًا للنهوض به . ولا بد أن يصاحبها

عناية كافية بالطرق لأنها شريان الحياة . وللمشآت الصناعية . دون نزاع . شأن كبير في دفع عجلة النهوض والتقدم في الريف بأسره . وقد خطونا في الثلاثين سنة الماضية خطوات لا بأس بها في سبيل نشرها وتوزيعها على القطر جميعه . وما أخرجنا لأن نضع لذلك خطة شاملة وثابتة . وتجاربنا خلال نصف قرن أو يزيد تشهد بأن البيئات الصناعية تحمل معها النور والعرفان . والنهوض والتقدم . ويكفي أن نشير إلى المحلة وكفر الدوار في الوجه البحري . أو إلى الحوامدية وأسوان في الوجه القبلي . وقديماً قالوا : ينبغي أن نعيش قبل أن نتفلسف . ولا سبيل إلى نهوض أدبي بدون دعامة مادية .

* * *

هذه هي القرية في بعض جوانبها الاجتماعية والمادية . ولا ننكر أنها خطت في الخمسين سنة الأخيرة خطوات في سبيل النهوض والتقدم . ونريد لها متابعة السير واطراد الخطى . والإنسان المصري ابنها ووليدها . وقد تخلص من عقدة الريف والحضري . ومن عقدة الفلاح والتركى . وتخلص أيضاً من

عقدة الصعيدي والبحري . وسبق لهذه العقدة الأخيرة أن أثارت ما أثارت من حساسية . وكان لها دخل في بعض الهيئات السياسية . وصدى في بعض التشريعات . وخاصة ما اتصل منها بتوزيع المحاصيل وإقامة المنشآت العامة . وأصبح الإنسان المصري في القرية يحس اليوم بأنه مصرى وعربى . ولا يبالي بعد هذا بشيء . لا بفرقة اللون ولا باختلاف اللهجة . وبدأ يشعر بشيء من متاع الدنيا . وإن كان لا يزال دون المستوى .

ونتساءل الآن هل استمسك في مسيرته هذه بما عرف في بيئته من قيم وتقاليده ؟ تلك هي المشكلة . وينبغي أن نواجهها في صراحة . وأظننا نتفق على أن القرية فقدت بعض معالمها . فقدت كثيرًا من مظاهر الود والتعاطف التي كانت سائدة فيها . وحرمت من دعاة الحب والوثام بين بنينا . طغت عليها نزعة مادية قاسية . وأصبحت لا ترعى ما كانت ترعاه قديمًا من جوار وقراة . فنافس الأخ أخاه . وأضاع الجار جاره . قل احترام الصغير للكبير . وضعف عطف القادر على المحتاج . وذهبت تلك القيادات الروحية والاجتماعية التي كانت دائمًا رسل سلام ومحبة . ومن لنا في مسجد القرية بإمام ناصح

أمين . وفى مدرستها بمرب مخلص صادق . وفى إدارة شئونها العامة بعمدة يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه . يؤلف القلوب ويوحد الصفوف . لا نريد من هؤلاء الثلاثة أن يكونوا مجرد موظفين . بل نريد بهم ولهم أن يعيشوا حقاً مع من حولهم . وأن يحسوا بإحساسهم . ويشعروا بشعورهم . إياهم إن فعلوا عادوا بالقرية إلى ذلك المجتمع الهادئ السليم . ونشأوا من بنيتها من يحب أخاه وجاره . ومن يرمى الله والوطن .

٥ - الإنسان المصرى فى المدينة

نريد جميعاً بناء الإنسان المصرى بنياناً قوياً متيناً . وسبيل ذلك أن نتبعه فى ميادينه المختلفة ، فنبين ما هو عليه . ونكشف عن مواطن ضعفه ، ونرسم لها ما نرجوه من علاج . وقد عرضنا فى أحاديث سابقة للإنسان المصرى فى البيت وفى المدرسة ، ثم وقفنا عنده قليلاً فى الريف والقرية ، ونريد الليلة أن نتحدث عنه فى الحضر والمدينة . وللحضر مشاكل

وصعوبات لا تقل عن مشاكل الريف ، ولا غرابة فالمدينة
 مجتمع سكاني أشد كثافة ، وأكثر تنوعاً ، وأسرع تطوراً . وهي
 بطبيعتها مفتوحة لأخلاق من الناس فيهم الخبيث والطيب .
 وليس من اليسير التفرقة بينهم ، وفي إمكانهم أن يختفوا في
 جوانب المدينة المتعددة . وقل أن تجمعهم صلة أو يربطهم
 رابط . اللهم إلا أن يكونوا أبناء حرفة واحدة ، أو أن يلتقوا
 عند مصالح مشتركة . وحياة المدينة في الجملة أعنف .
 والتنافس فيها أشد ، والتيار جارف ، ومغرياتها لا تحصى .

والمدن رمز الحضارة ، وشارة المجد والسلطان ، ولكل
 حضارة مدنها ، وربما اقتصر تاريخ أمة على حياة مدينة
 أو مدينتين من مدنها . ومن المدن ما عمر على الزمن ، وجاوز
 حياة أمة بعينها ، وربط التاريخ القديم بالتاريخ المتوسط
 والحديث . كاثينا ، وروما ، والإسكندرية . ويوم أن نشر
 الإسلام دعوته أخذ يؤسس المدن ، ويمصر الأمصار ، فأسس
 أولاً الكوفة والبصرة ، وهما مدينتان لها تاريخ حضارى وثقافى
 زاهر ، وتلتها الفسطاط والقيروان ، ولكل واحدة منها دور
 حضارى كبير ، وفى آخريات الثلث الأول من القرن الثانى
 للهجرة أسس المنصور بغداد التى أصبحت العاصمة الكبرى

للعالم الإسلامى جميعه . وفى منتصف القرن الرابع الهجرى .
 أنشأ الفاطميون القاهرة المعزية . وكأنما شاءوا أن ينافسوا بها
 بغداد . وفى آثارها الباقية ما يسجل صنيع من تولوا أمرها من
 حكام وولاة . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى جمال الفن
 الإسلامى وروعته . ومما يؤسف له أنا لم نرعه حق رعايته ،
 وكم قضينا على مباني وأحياء كانت تراث الماضى وذخر
 الحاضر .

وتسير بيننا حركة تحضير نشيطة . فتحول بعض القرى إلى
 مدن . أو تنشأ من جديد مدن أخرى بمعزل عن القديمة .
 وندع جانباً ما أخذ على هذا التحويل أو الإنشاء من
 ملاحظات اقتصادية واجتماعية وفنية . ومن عاصروا إنشاء
 مدينة الأوقاف مثلاً يذكرون ما دار حولها من نقد وتجريح ،
 وما صادفها من صعاب قضينا وقتاً غير قصير فى تذليلها .
 ونرجو ألا نبدأ فى أى تعمير حضرى قبل أن يستكمل درسه
 ونعد له عدته . ويعيننا هنا أن نشير إلى أن المدينة بدأت تطفى
 على القرية طغياناً ملحوظاً . وبالأمس القريب كان سكان
 المدن لا يمثلون إلا نسبة محدودة من سكان القرى ، وها هم
 أولاء اليوم يكادون يعادلونهم . وأخشى ما أخشاه أن يزدوا

عليهم . أخشى ذلك إبقاء على ثروتنا الزراعية التي تشكو فعلاً
نقصاً في الأيدي العاملة ، وحفاظاً على التربة التي نريد لها أن
تنمو وتزدهر . بدلاً من أن تهمل وتهجر . وأخشاه أيضاً خوفاً
من التطور المفاجئ الذي تشجع المدينة عليه وتحبب فيه ،
وحرصاً على قيمنا وتقاليدها التي ترعاها القرية رعاية أدق
وأكمل .

* * *

والحق أن المدينة أسرع تقبلاً للطوارئ والدخيل ، تلجأ إليها
الجماعات السرية ، وتحتسى بها الخلايا الهدامة . يتسع صدرها
لتنظيم الغريبة والدعايات الضارة ، ويمكن ربطها بشبكات
خارجية أو داخلية . وفي جلبتها وضوضائها ما يصرف الأنظار
عن وسائل الغش والخداع ، وما يعين على التفتن في الإعداد
والتدبير . وبالأمر القريب كان أمن الريف شغلنا الشاغل .
ووقفنا عند بعض أحداثه وقفات طويلة ، وفيها ما أمد كتاب
القصص والروايات بمادة غزيرة . واليوم نشكو بخاصة ونحذر
حقاً من اضطراب الأمن في المدينة ، وكثيراً ما عز علينا
الكشف عن المخائى والأوكار ، وقد لا نهتدى إليها إلا بعد أن
تشتعل النار ويتطاير الشرر .

وفي المدن أمر آخر نبالغ فيه ونتوسع في إباحته ، وكأنا
لا نحس بضرره وخطورته . ألا وهو المقاهي والأماكن العامة
للسهر والتسلية ، وقد ضربنا فيها رقماً قياسياً لا أكاد أجد له
أشباهاً تذكر فيها زرتة من مدن عربية أو أجنبية . ومما يؤسف له
أن وراء إنشاء هذه الأماكن محترفين يعرفون كيف يصلون إلى
غايتهم . فتفتح أمامهم الأبواب وتحل العقدة . ولست في
حاجة أن أشير إلى ما في هذه الأماكن من مضيعة للوقت
والمال وإفساد للخلق . وكأنما نشجع على التعطل والكسل
ونرخص لها . وعبئاً نحاول إن شددنا الرقابة على هذه
الأماكن . مادامنا قد أقررناها وسلمنا بها ، وبؤر الفساد لا بد
أن تنشر سمومها وتؤدي وظيفتها . ولشارع الهرم على سبيل المثال
سمعة أضحت مع الأسف عالمية ، ولا تخلو من تندر وفكاهة
يلهج بها الأجانب والدخلاء . ولا نزاع في أن عددًا غير قليل
من شبابنا يذهب ضحية لهذا اللهو والإغراء ولا يجدى في شيء
وعظ الوعاظ ولا نصح الكتاب . مادامت بؤر الفساد قائمة .
أنا لا أرفض الترويح عن النفس ، ولا أحارب التسلية .
ولكني أريد بها أن تكون بريئة وهادئة ، وأن توضع لها
ضوابط وحدود . فثلاً بدلاً من أن نضبط صغار التلاميذ
الذين يفرون من مدارسهم ويلجأون إلى دور السينما صباحاً

أولى بنا - كما صنع غيرنا - أن نحدد أعمارًا لدخول هذه الدور . وهذه رقابة مجدية .

ولديا تجمعات أخرى كالأندية الرياضية ودور النقابات والهيئات العامة . وهي في حاجة إلى قدر غير قليل من الضبط والتنظيم . وفي وسعنا أن نفيد منها ثقافيًا واجتماعيًا . إلى جانب ما ننشده فيها من ترويح وتسلية . وجانبها الثقافي شبه معدوم . وفي الإمكان أن نستخدمها لتحقيق أهداف شتى ، كمكافحة الأمية ، أو توسيع الأفق ، أو زيادة المعلومات العامة . ومما يؤسف له أنه لم يبق فيها للسلوك والمظهر الشخصي اعتبار يذكر . وهناك أندية كانت تلتزم في الماضي شرائط معينة في الزى والملبس . ولا نزاع في أن المستوى الأدبي في بعض الأندية أصبح أدنى مما كان عليه بالأمس . وأدع جانباً الألفاظ والعبارات . والإشارات والتعليقات ، ففيها ما يحمر له الوجه ، ويندى الجبين . وكأنما أصبحنا لا نشعر بهذا ولا نبالي به . وفي طرقنا وشوارعنا ، وفي مجتمعاتنا وأنديتنا ألفاظ سوقية . وعبارات جارحة لم نكن نسمعها من قبل . ولا تليق بمجتمع مهذب بحال .

* * *

إن بناء الإنسان المصرى عمل طويل وعسير . يبدأ من
 المهد . ويمتد إلى اللحد . وليس شئء أضربه من الاستهانة
 والاستهتار . ومن المخزى والمؤلم أن نهزل والعالم كله يجد .
 فلنأخذ الأمور فى جد إذن ، ولنحاسب على الصغيرة
 والكبيرة . وكثيراً ما تولدت أمور خطيرة عن مسائل تافهة .
 علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب غيرنا ، وأن نضرب
 المثل العملى . دون أن نقنع بالمواعظ والحكم . وما يزع
 السلطان أكثر مما يزع القرآن .

٦- الإنسان المصرى فى المصنع

فى حياتنا الحاضرة تجمعات مختلفة وتخصصات متعددة -
 ولعل التجمع الريفى فى تاريخ البشرية من أولها نشأة وأقدمها
 زمنًا . ثم قامت إلى جانبه تجمعات أخرى حرفية ومهنية .
 نشأت أولاً محدودة العدد . سهلة التكوين لا تعقيد فيها
 ولا تخصص . ولا درس ولا تعلم . وسيلها ضرب من
 المحاكاة والتقاليد . وربما جمع الفرد الواحد بين حرفتين أو

أكثر ، ولا يزال في قرانا ، بل في مدننا ، شيء من الحرف العائلية المتوارثة . ولم تلبث هذه الحرف أن تنوعت وتعددت ، وتعمقت وتخصصت ، وأصبح لكل حرفة طابعها الخاص . ثم تحولت إلى تجمعات صناعية أساسها العلم والدرس ، فيها أجهزة وآلات ، وفن وخبرة ، وعلم وتكنولوجيا . وكان طبيعياً أن تغطي هذه التجمعات الصناعية على التجمعات الريفية . وأن تنافسها منافسة قوية ، وأصبحت رمزاً للنمو والازدهار . ويمكننا أن نقرر أن النهوض الصناعى هو الفارق الجوهرى بين البلاد النامية والبلاد المتقدمة .

وأود أن أقف حدى الليلة على الإنسان المصرى فى المصنع . ولمصر صناعاتها التقليدية المعروفة من قديم ، وقد بدأ محمد على حركة تصنيع عصرية أوسع مدى وأعظم نشاطا ، إلا أنه لم يقدر لها أن تسير فى طريقها إلى النهاية . وفى أوائل هذا القرن بدأنا نفكر فى الأخذ بأسباب التصنيع الحديث . مستعينين ببعض الخبرات الأجنبية ، ودفعتنا الحرب العالمية الأولى نحو الصناعات الكبرى ، وهى عنوان الازدهار الصناعى المعاصر . واستجاب بنك مصر لذلك استجابة صادقة ، وأسهم فيه إسهاماً ملحوظاً . وانضم إليه نفر من

الرواد والمجددين ، وأدلوأ بدلوههم . وقادوا السفينة فى حزم وحكمة . وسارت الصناعة المصرية الحديثة فى طريقها يحدوها الأمل ، ويرعاها أصحابها فى حرص عليها ورغبة صادقة فى النهوض بها ، يستفيدون ويفيدون . ومن الظلم أن نغشط هؤلاء الرواد حقهم ، أو أن ننتقص جهودهم .

وفى ربع القرن الأخير شاء العهد الحاضر أن يدفع حركة التصنيع دفعة قوية . فأنشئت هيئات تخطط لها ، وأخرى تشرف على تنفيذ مشروعاتها . وعنى خاصة بالصناعات الثقيلة والكبرى كصناعة الحديد . وصناعة الألومنيوم . وتوليد الكهرباء . واستولى القطاع العام على معظم المنشآت القديمة . وأضاف إليها ما أضاف من منشآت جديدة . وتلك ولاشك ثورة صناعية أحدثت ما أحدثت من بلبلة واضطراب ، ولم تخل من قصور فى التخطيط . أو تعجل فى التنفيذ ، أو فساد فى الإدارة . ولكنها تعد حقاً خطوة هامة فى نهوضنا الصناعى ، وعليها أن نعزها . فتتدارك نقصها ، ونقوم معوجها . ونقضى على عناصرها الضعيفة أو الفاسدة ، ونضيف إليها كل ما تحتاج إليه من جديد نافع ، وقد تضاعفت تجمعاتنا الصناعية تضاعفاً كبيراً ، وأصبحت من

قطاعات مجتمعتنا الهامة . وفى الأمس القريب كان عمال الصناعة يعدون بالمئات أو الآلاف . وها هم أولاء يدخلون اليوم فى زمرة الملايين . وفى بعض مصانعنا أعداد تفوق نظائرها فى بعض البلاد العريقة فى الصناعة . وما أحوج هذه التجمعات الكبيرة إلى التوجيه والإرشاد . والتعهد والرعاية .

* * *

والعامل الصناعى لبنة هامة اقتصاديًا واجتماعيًا فى بنيان الأمة ، وقد عرف من قديم بالطاعة وحسن التقبل ، بالمهارة والذكاء ، بالاخلاص والتفانى . يحب عمله ويقبل عليه ، يتأنى فيه ويجوده ، ينتسب إليه ويباهى به . يتعلم ويعلم ، وكمنعمت مصانعنا برؤساء ، أو «اسطوات» كما يسمون ، بدأوا من الصفر ، ولم يلبثوا أن صعدوا إلى مستوى فنى ملحوظ . وكونوا حولهم أجيالاً من الصبيان والتلاميذ الذين أصبحوا معقد الأمل وعدة المستقبل . وقد شهد لعمالنا بذلك كله كل من اتصل بهم من إداريين وفنيين ، سواء أكانوا أجنب أم مصريين . وسما إنتاجنا الصناعى إلى درجة من الإتقان والجودة استطاع معها أن يغزو الأسواق الخارجية ، وأن ينافس الإنتاج العالمى .

ولكننا مع الأسف بدأنا نحس بنكسة هبطت بهذا الإنتاج عن مستواه ، وبدأ أنه لم يحتفظ بجودته . ولوحظت عليه أمور ، أخصها ظهور نقص فيه وعيوب كان يمكن تداركها . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تهاون وعدم عناية . ومنها تفاوت وحداته فلا تجيء على وتيرة واحدة ، أو تفاوت أجزاء الوحدة الواحدة ، فيجود أولها ، ويضعف وسطها أو آخرها ، ويظهر أنها بوجه عام لا تعنى بالخواتيم والنهايات أو « التشاطيب » كما يقولون بلغة الصناع . وقد نسيء استخدام الخامات فنخلط بها ما ليس منها خطأ أو عن سوء قصد . وفي هذا ما فيه من غش وتمويه . والتزاهة أمر ضروري في القول والعمل ، ولسنا بصدد أن نتبع في تفصيل جوانب النقص في إنتاجنا الصناعي ، وإنما قصدنا أن نشير خاصة إلى ما يتصل منها بالنواحي الإنسانية . والإنسان هو الثروة الحقيقية لكل أمة ، وبدونه لا سبيل إلى نهوض أو تقدم .

وفي السنوات الأخيرة ترددت الشكوى من الإنتاج الصناعي في القطاع العام . ولا نزاع في أن لهذه الشكوى محله . ووراءها عوامل شتى كنقص الخامات ورداءة نوعها ، أو فساد الأجهزة والآلات وعدم العناية بإصلاحها

وتجديدها ، أو سوء الإدارة وضعف الإشراف عليها . ولكن
هناك عاملاً آخر لا يصح أن نغفله ألا وهو الإنسان . فقد
دللتناه وتملقناه . وحرصنا على رضاه وتأييده أكثر من حرصنا
على عمله وإنتاجه . واستجبنا لمطالبه بحق أو بغير حق . وقل
أن نفكر في محاسبته وتقييم عمله . فاختلط المحسن بالمسئ ،
وتساوى العامل بالعاطل . وأصبح الإنسان المصرى فى المصنع
وكأنه لا يعرف إلا الحقوق والمطالبة بها ، أما الواجبات
فلا يكاد يعنيه أمرها . وربما شجعت الهيتات والتقابات على
ذلك . ولم يحاول رؤساؤه والمشرفون عليه أن يضرّبوا له المثل
الصالح . ويقدموا له القدوة النافعة . ويزداد الأمر خطراً يوم
أن يساء اختيار هؤلاء الرؤساء . ويوم أن يحنحوا هم أنفسهم
عن مهمتهم الأصلية إلى ملق وزلنى . أو إلى سعى وراء مغنم
وإثراء على حساب المصلحة العامة .

* * *

فأين نحن من العامل ورب العمل اللذين كانا يدينان
لمصنعيها بالولاء والتبعية . ويؤمنان بأنها جزء منه لا يتجزأ .
ويباهيان بما يحققان فيه من جودة وإتقان . وما أحوجنا أن

نعود إلى ذلك . وهو أمر طبيعي . وخاصة بعد أن أصبح المال فعلاً مالنا ، والمصنع ملكاً لنا . فهل تؤمن بذلك حقاً ؟ يظهر أنا لم نصل إلى ذلك بعد . ويوم أن نصل إليه سنحل كل عقده . وستغلب على كل صعوبة .

٧- الإنسان المصري في الديوان والمكتب

سبق أن عالجت ، منذ أربعين سنة تقريباً ، مع صديقي مريث غالى ، موضوع « الإدارة الحكومية » ، وأخرجنا فيه مؤلفاً أغضب الملك وأعوانه ، وأقلق الوزراء والمستوزرين ، وفتشت من أجله دورنا ، وصودر كما تصادر كتب الدعاية الهدامة ، ويعلم الله أنه لم يكن لنا فيه من قصد إلا أن نكشف عن جوانب النقص ، وندعو إلى شيء من العلاج والإصلاح . ثم قدر لهذا الكتاب أن ينشر ويعرف ، وكان

حديث الناس زمناً ، واشتد عليه الطلب من الداخل والخارج . ولم تلبث طبعته الأولى والوحيدة أن نفذت بعد عام أو عامين ، وكتم طلب إلينا أن نعيد طبعه ، أو أن نعود إلى الموضوع مرة أخرى ، وما أكثر ما جد فيه !

والسلطة التنفيذية إن أدت وظيفتها على وجهها نشرت العدل والأمن والطمأنينة ، وحققت كثيراً مما ننشده من رخاء ورفاهية . وسارت بنا قدماً في طريق النهوض والإصلاح . وهى دون نزاع أبقيت من البرامج والشعارات السياسية ، وألصقت بالخدمة العامة من الأحزاب والحزبين .

• وكان لى مرة حديث بالهند فى هذا الشأن عام ٥١ مع نهرو ، وجرت على لسانه كلمة لا أنساها بحال وهى « أن السلطة التنفيذية إن صحت كانت أعون على النهوض واستقامة الحكم من البرامج الحزبية والدعابات السياسية » ، ومن واجباتنا الأولى أن نحميها من الساسة والمتحزبين . وقال لى يوماً رينى مسن : أنا أعرف البحار ، وحلاق الصحة ، والصراف ، وشيخ الخفراء ، وإن استقام أمر هؤلاء استقام لى كل شىء .

وبجال القول فى الأداة الحكومية ذو سعة ولها سلطاتها الثلاث المعروفة : التشريعية ، والتنفيذية والقضائية . وليس

شئ أضر بهذه السلطات من أن تحتلظ ، أو أن يعدو بعضها على بعض .

وقد وقفنا طويلاً في كتابنا الذي أشرت إليه عند مبدأ فصل السلطات . وسجلنا عدوان الملكية والحزبية عليه ، ومن العيب أن نتحدث عن سلطات أو عن فصل بينها في حكم دكتاتوري . وأكدنا ضرورة الاستمساك باستقلال القضاء واحترامه ، ودعونا إلى توحيدده ، وإنشاء مجلس الدولة . وقد أخذ فعلاً بما دعونا إليه ، فأنشئ مجلس الدولة عام ٤٦ ، ووجد القضاء بعد ذلك يوضع سنين . بيد أن هذا لم يمنع الحكم الدكتاتوري من العدوان عليه والتكيل برجاله - أما السلطة التنفيذية فقد عينا فيها خاصة بأمرين هامين : أولهما وضع الرجل الصالح في المكان الصالح ، وثانيهما التخلص من المركزية وتمكين كل عامل في الدولة من تحمل مسئوليته . ولم يسلم هذا بدوره من عدوان أثر عدوان ، فهل لنا ، ونحن نتحدث دون انقطاع عن التصحيح ، أن نتلافى أخطاء الماضي . وأن نحول دون وقوعها .

* * *

ولن أعرض في حديثي الليلة للسلطة التنفيذية في شتى جوانبها ، بل أقصره على الإنسان المصرى فى المكتب والديوان . وإذا كنا قد شكونا فى أحاديثنا السابقة من سوء تربيته وتكوينه فى البيت والمدرسة ، ومن اضطراب أحواله فى القرية والمدينة ، ومن ضعف إنتاجه فى الحقل والمصنع . فإن شكوانا منه فى الجهاز الإدارى أشد وأعظم . فهو لا يقدر الخدمة العامة التقديس اللائق بها ، ولا يؤمن بأنها ضريبة واجبة الأداء . وعلى أحسن وجه . وكل هم أن يسد الخانة . وأن يثبت الحضور ، وأن يتحايل على الغياب . ولو خشى الله وخشى الناس لأدى الأمانة على وجهها ، وكيف يخشى الله وقد بعد عنه . ولا سبيل لأن يخشى الناس مادام قد انمحق من قاموسنا الإدارى فكرة الجزاء والعقوبة .

وهذا الإهمال ملحوظ فى مكاتبنا ودواويننا على اختلافها . وأقبح ما يكون إذا وقع فيه المسئولون ومن هم فى مراكز القيادة . وأذكر فى حديث لى مع المرحوم إسماعيل صدقى . وكانت الوزارات حين ذلك تسعاً فقط ، أنه قال : أعطى تسعة وكلاء وزارات يعرفون واجبهم ويقدمونه . وأسألنى بعد ذلك عن الجهاز الإدارى وسيره .

ولا أتحدث عن النظام والترتيب ، فنحن فيها يبدو نعشق
 الفوضى ، فوضى في تسلم الطلبات والمستندات ، وفي حفظها
 وتسجيلها ، وكم شكاً أصحاب الحاجات من ضياع
 أوراقهم ، وأظن أنه قل بين الممولين مثلاً من يعتمد على
 بيانات مصلحة الضرائب لإثبات ما سدد من استحقاقات.
 وأقسام الصادر والوارد والأرشف بوجه عام موضع شكوى في
 مصالحنا المختلفة ، وهناك فوضى أخرى في المكاتب وتوزيعها ،
 وفي الزائرين واستقبالهم ، فتختلط الأقسام والإدارات ،
 وتزدحم المكاتب ، فلا يؤدي عمل ، ولا تقضى حاجة .
 ويستقبل الزائرون بغير حساب ودون تقيد بموعد معين . وأدع
 جانباً الأكل والشرب ، فهذا مباحان في المكاتب إباحة
 مطلقة ، ولا مانع من أن يبيع الشخص ويشترى في مكتبه
 بعض ما يحتاج إليه .

والوقت والمواعيد لا قيمة لها ، فتحدد ساعات الحضور
 والانصراف ولا يبالى بها ، ولا نكاد نفرق في إدارة
 أو مصلحة بين الخارج والداخل . وليتنا نقف تلك اللحظات
 التي نقضيها في المكتب على المطلوب ، فقهوة الصباح
 ضرورية ، وقد تليها قهوات أخرى ، ثم يهيء طعام

الإفطار ، ولا بأس من أن نقرأ الصحيفة ونقف على أخبار الدنيا ، وفي خلال ذلك كله سمر وتسلية يقطعان الوقت ويعطلان العمل . ومن اليسير التخلص من طلبات الجماهير بالتأجيل إلى الغد ، والغد في عرف الدواوين ليس يقرب . وقد ننجح أيضاً في تأجيل طلبات بعض الرؤساء والمشرفين وبارك الله في بكرة . فهي تعفينا من كل طلب عاجل . ومن شاء أن يقضى حاجته ، فعليه أن يلجأ إلى وسائل قد تكون غير شريفة ، ومن لا واسطة له لا يستمع إليه .

وأدع جانباً الجهل وقلة الخبرة اللذين تغشيا في مصالحنا ودواويننا تحت ضغط أصحاب النفوذ والأنصار والاصهار . وهناك من لا يقنعون بالعمل الذي يحسنونه ، ويأبون إلا أن يقفزوا على حساب غيرهم إلى مناصب أسمى ، وكثيراً ما أجبيوا إلى رغبتهم دون رعاية لظروف العمل ومتطلباته . وفي المسابقات والاختبارات التحريرية والشفهية ما قد يكبح جماح هذا الطغيان . ولكن هل يؤمن الطلاب والمتسابقون حقاً بتزاهة هذه الاختبارات وعدالتها ؟ واجبنا أن ننتهي بهم إلى ذلك .

* * *

هذه صورة قائمة ولاشك . وفي شئوننا الإدارية ما يبعث
 حقًا على الأسى والأسف . ولكن لكل داء دواء . ودواؤنا
 الحقيقي أن نحسن الاختيار . وأن نحكم الرقابة والإشراف ،
 فنضع الرجل الصالح في المكان الصالح ، ونكافئ المحسن على
 إحسانه ، ونحاسب المسيء على إساءته ، ولم يبق محل لإهمال
 أو تأجيل . ولو أنصف الناس استراح القاضي . وبات كل
 راضيًا عن أخيه .

٨ - الإنسان المصرى المواطن

الوطن غال كما يقولون ، وحب الوطن من الإيمان . وقد
 عرف المصرى بحبه لوطنه ، فهو لا يكاد يبرحه ، ولا ينشط
 كثيرًا للرحلة والانتقال عنه . وإذا ما اضطر لسفر خارج البلاد
 عجل بالعودة ما استطاع .

وكم سعدنا أخيرًا بتلك الحركة النشيطة التى دفعت العامل
 المصرى لأن يغزو مبادئ العمل فى الأقطار الشقيقة . وإن كان

يعتبر نفسه ضيقاً عليها دائماً . أما الهجرة الجماعية فالمصريون من أقل الشعوب إقبالاً عليها . ولهم فيها تجارب حديثة . وهى أقرب إلى التهجير منها إلى الهجرة . ولا تزال نرتقب نتائجها .

وقد عرف المصري كيف يضع طابعه على وطنه منذ آلاف السنين . فبنى فيه قديماً الأهرام وأقام المسلات والنماثيل . وشق حديثاً الترع والجسور . وأنشأ القناطر والخزانات .

وتواردت عليه عناصر وجنسيات مختلفة من الشرق والغرب . فامتص ما اختلط به منها . ومصره تمصيراً كاملاً . بعد جيل أو جيلين . وما بقى منعزلاً عنه من الغزاة والدخلاء . كثيراً ما كانوا مبعث تندر وفكاهة . ونستطيع أن نقرر أن دعوى العنصرية لم تجد فى مصر سوقاً رائجة قديماً أو حديثاً . وقد عرف النيل كيف يربط أبناءه برباط وثيق . ومنذ أن جمع مينا بين أبناء الشمال والجنوب . لم تنفصل وحدتهم . وكان الجنوب يمتد إلى السودان الشمالى بأكمله . والصعيدى والبحيرى أبناء وطن واحد . وفوارق الحسب والنسب مؤقتة وزائلة . وترجع فى الغالب إلى فوارق جاه ومال . ومال الله غاد ورائح . وقرانا متشابكة بسلاسل نسب متبادلة . وفى كل أسرة فقيرها وغنيها . ولا يعرف الإسلام فوارق الدم بجال .

« كلكم لآدم وآدم من تراب » . ورحم الله عمر بن الخطاب
الذى استدعى إلى مجلسه من زعم أنه ابن الأكرمين . وطلب
إلى من اعتدى عليه أن يقتص منه .

وقد غرس الإسلام فينا بذور التسامح الديني ، ونماها
المصرى بما فطر عليه من عطف وسماحة . ويكفيها شرفاً أن
محمدًا صلى الله عليه وسلم صاهرنا ، وأصبحت مارية القبطية
أم ولده إبراهيم . ولا أظن أن قدماء المصريين ضاقوا ذرعاً من
الناحية العقائدية بمن غزوه من هكسوس ويونان ورومان ،
واستطاعت جالية يونانية كبيرة أن تستوطن شمال الدلتا على
مقربة من الإسكندرية قبل الميلاد ، ومن اليونانيين من يباهى
بمصريته إلى اليوم .

ووجدت المسيحية في مصر منذ عهد مبكر ملجأً ومقرًا
هادئًا ، وعرفت كيف تتآخى مع الإسلام ، واستعان المسلمون
بكثير من المسيحيين في أعمالهم ودواوينهم . وفي القرية المصرية
اليوم صورة لتسامح ديني صادق ، « لكم دينكم ولى دين » .
فالمسلم والقبطى يتجاوران فى المسكن ، ويتشاركان فى العمل
ويتقاسمان السراء والضراء . واستطاعت ثورة سنة ١٩ أن ترد
كيد المستعمر الذى عمل على التفرقة بين الطرفين ، وأن تجمع

في قوة ووضوح بين الصليب والهِلال . ولا أنكر أنه قد مرت بنا أزمات ولحظات يرتفع فيها صوت التعصب الديني ، ويلتف حولها دعاة التفرقة . إلا أنها في الغالب لا تخلو من مؤثرات خارجية وسموم طائفية ، ولم يعز على الحكماء والعقلاء أن يقضوا عليها ، وتكاد تقتصر دائماً على المدن وحدها ، وليس شيء أعون على الوحدة الوطنية من العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد . ولم يشك يهود مصر فيما مضى من حيف أو جور ، بل بالعكس نعموا بيننا بعيش رضى وحظوا أحياناً بمراكز سامية ، ثم جاءت إسرائيل وبالألم عليهم ، والصهيونية دون نزاع ضرب من الدعوات العنصرية ، وقديماً زعم اليهود أنهم شعب الله المختار .



وكل مواطن في حاجة إلى لقمة العيش ، وبقدر تمكنه منها واطمئنانه إليها يشتد تعلقه بوطنه . ويرضى المصرى بالقليل عادة ، فإن عز عليه ذلك فلا غرابة في أن يكفر بالأهل والوطن ، على أنه في إيمانه بالله أقرب إلى الشكر منه إلى الكفر .

ولا يضمن يجهد أو عرق في سبيل قوته ، ولا يتردد في أن
يرحل من الجنوب إلى الشمال سعيًا وراءه . والوطن ملك لأبنائه
جميعًا ، ولا بد لهم أن يتقاسموا خيراته ، وواجبنا أن نضع هذا
دائمًا نصب أعيننا ، وأن نحسب حساب القاعدة العريضة في
طعامها وشرابها . وقد خطونا في ذلك خطوات ملحوظة ،
ولكنها لا تزال دون الحاجة ، ومن العبث أن نخلق من محرومين
مواطنين أوفياء ، وأمر آخر ينبغي أن ننبه إليه ، وهو أن
الثروات الكبيرة الطائلة أصبحت غير مستساغة وتثير ما تثير من
نقد وتعليق ، بل حقد وحسد . وواجبنا أن نكشف عن
مصادرها ، وأن نؤدى حق الوطن فيها . وليس شيء أضر
بذوى السلطان من أن يستغل نفوذهم للإثراء والمصلحة
الخاصة .

ولأبناء الوطن حق متعادل في خدماته ، دون تفرقة بين
غنى وفقير ، وربما كان الفقير أحوج إلى هذه الخدمات ،
ودون تفرقة بين ريف وحضر . وأسوأ الخدمات ما يبدو عليه
أنه يتم لحساب خاص ، فيشق طريق باسم زيد أو عمرو ، أو
يقام كبرى لعبور أشخاص معينين .

وقد أهملنا خدمات الريف والقرى إهمالاً ملحوظاً ، ولم

يعن بها إلا أخيراً . واذكر أنه صادفني على الباخرة في عودتي من بعثتي عام ٣٥ شاب فرنسي ، ودار بيننا حديث حول مصر وشئونها ، وركبنا القطار سويا من الإسكندرية إلى القاهرة . وكانت ملاحظته الأولى بعد أن ألقى نظرة على ريفنا أن قال أين مصر ؟ ويسعدني أني كنت قريباً كل القرب منذ أربعين سنة مضت من المحاولة الأولى لإنشاء المراكز الاجتماعية في بعض القرى ، وكانت أربعة فقط . وتلتها مراكز ومجمعات أخرى . ولم يكن شأن الخدمات الصحية أحسن حالا . وهانحن أولاء ننشئ مستشفيات قروية . وأخرى مركزية ، وثالثة في العواصم والمدن الكبرى . ويتشتر التعليم في الريف والقرى طولا وعرضا ، فلا تكاد توجد قرية بدون مدرسة ابتدائية ، وقد تكون إلى جانبها مدارس إعدادية ، وأخرى ثانوية فنية أو عامة ، وأصبح للحكم المحلي وزارة خاصة نعول عليها في أن تجدد وتنشئ ، وأن تشرف وتراقب .

* * *

وإذا كنا نتحدث عن حقوق المواطن ، فينبغي أن تذكر واجباته ، وعليه أن يعرفها ، وأن يؤديها ، على وجهها . وليس

ثمة حق لا يقابله واجب ، والواجبات كثيرة يكفي أن نشير إلى أمثلة منها .

وواجب المواطن الأول أن يدافع عن بلاده ، وأن يذود عن حوزته ، وقد علمنا ثلث القرن الماضي في هذا الشيء الكثير ، وأصبحت الجندية أمرًا نباهى به ، وقد كنا بالأمس نهرب منها . ولم يكن رجل الشارع في أكتوبر عام ٧٣ أقل استعدادًا للبذل والتضحية من الجندي في الميدان . وأقبح شيء في أداء هذا الواجب أن يصاحبه زهو وغرور ، ومحاولات تعد على المواطنين بدلاً من التصدى للأعداء . ومن واجبات المواطن أيضًا أن يبني وطنه في المزرعة والمصنع والمتجر ، ولا يمكن بناء وطن بدون إنتاج وافر وسليم ، فعلى المواطن أن يحدد زرعه بحيث يباهى به الزراع داخل الوطن وخارجه ، وأن يتقن صنعته بحيث يقوى على منافسة الصناعات الأجنبية ، وأن يبيع ويشترى في صدق وأمانة ، ورحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى . ومن واجباته أن يؤمن بأن المال العام ماله ، وعليه حمايته ورعايته ، يحميه إن كان في يده ، ويرعاه إن كان في يد غيره . هو أمانة في أعناقنا جميعاً وأى عدوان عليه خيانة من المعتدى ، ومن يعرف العدوان

ولا يرده . وانقضى زمن الاستعمار الذى ربما أشعرنا بأننا غرباء
 فى أوطاننا ، وأصبحت الأرض أرضنا ، وخيراتها ملك لنا ،
 ومن الحق أن نبدها بأيدينا . ومن واجبات المواطن أن
 يقدس القانون ، وأن ينزل عنده فلا يتلاعب به ،
 ولا يتحايل عليه ، ولا يستخدمه فى غير موضعه . وعليه أن
 ينزل عند حكمه وإن كان جائرا فى نظره ، ولتعديل القوانين
 سبل معروفة غير التحايل والتهرب منها .

* * *

واجبات وواجبات ، ولا أظن أن مواطنا حقاً يجهلها .
 والمهم أن تؤمن بها ، وأن نقدها باسم الأمة والوطن .

٩ - الإنسان المصرى والعالم الخارجى

لمصر ماض مجيد ، وحاضر نرجو له اطراد الازدهار . ولها
 موقع جغرافى ربطها بالعالم شرقاً وغرباً ، وهى بوجه خاص
 ذات مركز معروف فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد
 سعى إليها الناس من قديم ، ولا يزالون يسعون ، سعوا إليها

غزاة وفاتحين ، أو تجارًا وطلاب رزق . وخرج المصريون بدورهم إلى العالم المحيط بهم في فتح وغزو ، أو في كشف وتجارة . ولم يبق في عالمنا الحاضر قطر ناء ولا مكان بعيد ، وفي بضع ساعات يستطيع المرء أن يصل إلى العالم الجديد أو العالم القديم . ولم تنشط الرحلة والسياحة قط نشاطها الآن ، ولم تختلط الشعوب بالأمس قدر اختلاطها اليوم ، وفي هذا الاختلاط ما يكشف عن جوانب كل شعب ومميزاته . ونساءل ما هي الصورة التي نبدو عليها أمام العالم الخارجى ؟ ويعيننا أن تكون لائقة وكريمة .

وقد كنا نشكو ، ولعهد غير بعيد ، من الحفاء والحفاة صغارًا وكبارًا ، ودعونا إلى تبرعات لتوفير أحذية لهؤلاء الحفاة ، ومنحت ألقاب تشريف لمن أسهموا في هذه التبرعات ، وإن كنا لا نعلم بدقة أين ذهبت . ومهما يكن من أمر فإن الحفاء في مدننا اختفى أو كاد ، وضاعت دائرته في القرية ، ونرجو لها أن تبرأ منه تمامًا . ولا يزال زينا يستلقت النظر ، فهو متعدد ومتباين ، فيه قديم وحديث ، سهل ومعقد ، ولا يعبر عن مظهر من مظاهر الوحدة القومية . وفي ثورة سنة ١٩ اتجهنا نحو توحيده ، وقامت بذلك دعوة صريحة ،

ولكنها فيما يظهر لم تكن قوية بدرجة كافية ، ولم تتوفر لها الأسباب ، ولم يمنحها القادة والزعماء ما تستحق من رعاية . ولاشك في أننا نسير نحو التقارب والتلاقى في زينا ، وربما كانت المرأة ، والمرأة العاملة ، أسرع خطى في هذا السبيل ، وأعتقد أننا واصلون في النهاية . ويكفى أن أشير إلى غطاء الرأس ، وقد ضيقنا به ذرعاً . وانتهينا فيه إلى حل هو أقرب إلى السلب منه إلى الإيجاب . فألغيناه وأخذنا بعري رءوسنا ، وانتشر ذلك في سرعة ملحوظة . وفي وسعنا عن طريق الملابس الجاهزة ، وهى في تقديرى ملابس المستقبل ، أن نصل إلى وحدة الزى المنشودة إن في القرية أو في المدينة ، ويستطيع الزى المدرسى والجامعى أن يعاون في ذلك معاونة صادقة ، إن درس دراسة صالحة .

وأمر آخر طال فيه الحديث ، وعقدت الندوات ، ووضعت من أجله بعض الأوامر والتعليمات . وهو موضوع النظافة ، وأعنى به نظافة الأشخاص والأشياء ، نظافة الأماكن والشوارع . وربما كانت الحياة الريفية لا تخلو من أوساخ وقاذورات ، والعناية فيها بالنظافة ناقصة أو معدومة . ولكن كيف نقبل وساخة المدن وفيها أجهزة خاصة بالنظافة ،

ولدى القائمين عليها وسائل شتى لأداء مهمتهم ، وأخشى ما أخشاه ألا يكون لديهم حس النظافة كاملاً . وهو حس يتكون منذ النشأة ، وهناك أناس توفرت عندهم وسائل النظافة ولا يعنون بها . والواقع أن النظافة عادة وتربية ، ولا بد أن يرى عليها الصغار ويؤخذ بها الكبار ، وفي منزل قدر ليس من السهل أن تنشئ طفلاً نظيفاً . وعلينا أن نتقّى في مدننا كل ما يحول دون النظافة ، من تكديس مواد البناء ، أو انكسار ماسورة المياه ، أو انفجار المجارى . ومن الظلم أن نلقى عبء الوساخة على عمال النظافة وحدهم . فالجماهير وعامة الشعب هم المسئولون الأول ، ولو كرهوا الوساخة لانتقوها وأزالوها . ونحن نريد في اختصار أن نباهى أمام ضيوفنا وزوارنا بنظافة مدننا ، وهناك قرى في بلاد أخرى زرناها وعشنا فيها ، وهى في غير تردد أنظف من مدننا . والسبيل الوحيد لتحقيق النظافة هو أن نشعر بها ونؤمن بأن الوساخة عيب وشىء قبيح .

وأمر ثان يتصل بالنظافة ، وهو النظام والتنسيق والترتيب . تنسيق فى أشخاصنا ومظاهرنا ، تنسيق فى أقوالنا وأفعالنا ، تنسيق فى بيوتنا ومكاتبنا ، تنسيق فى أبنيتنا وشوارعنا ، تنسيق فى معاهدنا ومتاحفنا ، تنسيق فى أنديةنا

ومتزهاتنا ، تنسيق في معروضاتنا ومبيعاتنا . وأقولها في صراحة : إن التنسيق والترتيب ينقصاننا في كل شيء ، وكأنا فطرنا على الفوضى «والهرجلة» ، فوضى في القول ، وفوضى في العمل ، فوضى في السير في الشوارع ، وسياراتنا وقادتها أوضح مثل على ذلك ، فوضى في المواعيد فلا ترتبط بها ولا نحسب لها حساباً ، وفوضى في الوقت مع أنا نعيش في عصر يكاد يقاس كل شيء فيه بالزمن . ربما كان هناك أناس يعشقون الفوضى ، يلتقون عندها . ويستريحون إليها ، ويزعمون مثلاً أنهم فنانون ، ولهم شأنهم . أما أن تمتد فوضاهم إلى المجتمع والنظام العام فهذا ما لا نقبله بحال ، ويجب محاربته أينما كان . ولست في حاجة أن أشير إلى أن زوارنا وضيوفنا يدركون هذه الفوضى ويسجلونها علينا ، فهل آن الأوان لأن نحجل منها ونقضى عليها .

ويتصل بهذه الفوضى الجلبة والضوضاء اللدان ابتلينا بهما ، فنصرخ في غير ما داع ، ونتفنن في المناداة على سلعنا بأعلى صوت ، ونطلق الكلكسون بغير حساب . وقد تتلاعب به . أما أجهزة الإذاعة في المقهى والمترل فبعث قلق دائم لمن ينشدون شيئاً من الراحة ، وكثيراً ما تعلو أصواتها ولا من

يستمع إليها . ويظهر أن حاسة السمع عندنا في حاجة ماسة إلى تربية خاصة وتعود على الأصوات الهادئة ، وفي هذا حماية وحفظ لها . وأذكر أن دراسة ، قام بها بعض المتخصصين من أطبائنا في أماكن نائية من السودان حيث لا جلبة ولا ضوءاء ، أثبتت أن حاسة السمع هناك أحد وأدق .

ولابد لي أن أشير إلى أخطاء فاحشة نقع فيها أحياناً في معاملتنا للسامعين والأجانب بوجه عام ، فنكذب في غير ما داع ، ونسرف ونبالغ ، ونفضل ونغالط ، ونحاول استغلالاً لا مبرر له ، وقد ندير احتمالات ونرتكب سرقات . والغريب كما يقولون ، أعمى ولو كان بصيراً ، وهو أميل إلى التسليم والتصديق ، ويرحب بكل معاونة مخلصه . وأدع جانباً طلب « البقشيش » ، وأرجو أن نكون قد انصرفنا عنه . وأحذر من الألفاظ النائية والعبارات الساقطة التي قد لا يفهمها أجنبي ، ولكنه لا يتردد في البحث عن معناها . وما يؤسف له أن هذه الألفاظ كثيرة الورد بيننا ، وهي عنوان تربية سوقية ساقطة . والسائح أو الأجنبي عين ترى . وأذن تسمع . وكثيراً ما سجل غريب الألفاظ ، أو أخذ صورة لأقبح المناظر . ولا يتردد في أن ينقل إلى بلده كل ما رأى وسمع ، فهل يرضينا أن تنقل هذه الصور عنا ؟

هذه هي صلة المصري بالعالم الخارجى يوم أن ينتقل إليه .
وقد يسعى هو إلى الخارج سائحًا أو زائرًا . أو طالبًا للمال أو
علم . وكان لنا فى الماضى قلة من الزوار احتفظوا بلبلدهم بسمعة
طيبة ، ومثلوها تمثيلًا كريماً . أما اليوم فقد كثر العدد .
واتسع الخرق على الراقع . وأنا لا أرفض رحلة شبابنا إلى
أوروبا أثناء الصيف رغبة فى اكتساب خبرة أو حصول على
مال . ولكنى أريد لها أن تنظم وأن ترعى فيها كرامة الوطن
والمواطنين . وقد رأيت منها أمثلة لا داعى إلى سردها . ولنا
أطباء ومهندسون ، وأساتذة ومدرسون يعملون فى الخارج .
وأدعوهم إلى ألا يتنكروا لوطنهم ، وألا يكونوا حربًا على
أنفسهم . ومما يحز فى النفس أن ترى جاليات أخرى متعاونة
متساندة . فى حين أن الجالية المصرية لا تخلو من نحاس
وتنافر ، وقد قالوا من قديم : « إن الغريب للغريب نسيب » .
وإذا كانت لنا عورة فأولى بنا أن نداريها . ومما يؤسف له أن
عمالنا فى الخارج ربما كانوا أشد تماسكًا من مثقفينا .

* * *

إن الحديث عن بناء الإنسان المصرى طويل . وقد وقفت
عليه تسعة أحاديث ، ولا أزعم مطلقًا أنى قلت فيه كل

ما ينبغي . ونحن ندرك أن بناء طفل واحد وتكوينه تكويناً
 سليماً ليس بالأمر الهين . فكيف بيناء أبناء أمة بأسرها ؟ إن
 هذا يتطلب جهداً متواصلاً من الشعب والدولة . وواجبنا
 جميعاً أن نأخذ أنفسنا به . ولأننا نأمن فيه . فنقوم كل
 معوج . ونحارب كل فاسد . ونصيب الأم والأب بخاصة من
 بنيان الإنسان المصرى جد كبير . وكلى رجاء أن يكونا أهلاً
 لهذه الرسالة الجليلة . وإلى لقاء قريب فى مشكلة أخرى من
 مشاكلنا الثقافية والاجتماعية . وما أكثرها .

الحلقة الثالثة

بين القديم والجديد

١ - بين القديم والجديد

أحب أن أتحدث الليلة عن موضوع كثر فيه الأخذ والرد .
وتبادل الناس فيه المعارضة والتأييد . وأصبحنا نحس إزاءه
بشيء من القلق والحيرة . وأعنى به موضوع الجديد والقديم .
ومن الغريب أن هذا التقابل ليس من المستحدثات ولا من
مبتكرات هذا العصر . بل هو سنة من سنن الحياة . عاش فيه
أباؤنا وأجدادنا بل عاشت فيه البشرية كلها منذ أن خلق الله
الأرض ومن عليها . ولكل مطلع شمس جديدة حسًا ومعنى .
جديد فيما خلق الله من كائنات . وجديد فيما تكشف عنه في
هذا الكون من عجائب وأسرار . جديد فيما نقوم به من خيرات
وحسنات . وجديد فيما نرتكب من معاصي وسيئات . وبجانب
هذا الجديد قديم وراثته واستمسكنا به . وقد لا ندرى كيف
ولا متى وراثته . هو جزء منا نستجيب له ونهتدى بهديه .
نستمع له ونتبع خطاه . وقد نحاول التخلص منه . ولكننا
لا نلبث أن نخضع لسلطانه . ومن الخطأ أن نزع أن في وسعنا

أن نبدله في يوم وليلة . وللتورات ادعاؤها المغرور في هذا الباب . فهي تزعم دائماً أن في وسعها أن تستأصل الماضي كله . وأن تسمححه مسحاً . وأن تحل محله جديداً لا صلة له بالقديم في شيء . وربما طال بها هذا الغرور زمناً . ثم ينتهي بها المطاف إلى التسليم بأن هناك مقدسات لا سبيل إلى إنكارها . وأن هناك ميراثاً من العادات والتقاليد . وثروة من القيم والمبادئ نخسر كل الخسارة إن أنكرناها أو تنكرنا لها .

إذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للجديد والقديم . ففيم الحيرة ولم القلق إذن ؟ أخشى ما أخشاه أن يكون الجديد قد اشتد طوفانه . وهل في هذا ما يزعجنا إن كانت لنا قدرة على المقاومة . وحكمة نختار بها السليم والأصلح . ونتقى بها السئ والخبيث . ولا نزاع في أن في الجديد الصالح والنافع . وفيه الضرر والهدام . والأمر بأيدينا نحن وبما يتوفر لنا من حسن تقدير وملكة اختيار . ومعارضة الجديد لمجرد أنه جديد عبث . ووقوف في طريق السير . والحياة سائرة لا محالة . وواجبنا أن نتسلح لها وأن نواجه خيرها وشرها . ولا أرضى مطلقاً أن تضعف ثقتنا بأنفسنا . فنرفض لمجرد الرفض أو نتحايل ونتهرب . وأقبح من هذا أن نتستر وراء آباءنا وأجدادنا .

لنقول إنهم لم يعرفوا هذا أو أنهم لم يقولوا به . وأين هم حتى نحكمهم في أمور لا صلة لهم بها ولو أدركوها لوقفوا منها موقفًا آخر . ولهم في الماضي مواقف جليلة ومشهودة إزاء الجديد والغريب .

وأمر آخر أخشاه . ولخشيتي ما يبررها . ألا وهو أن احترامنا للقديم يضعف واستمساكنا به يقل . وأنا لا أنكر أن في القديم خرافاته وخزعبلاته . وأن له أخطاءه وسيئاته . وفيه بوجه خاص ما لا يتمشى مع روح العصر وما لا يستجيب لمتطلباته . ولكن هل معنى هذا أن كل قديم قبيح . وهل معناه أن كل قديم مرفوض ؟ كلا وألف مرة كلا . للقديم قيمه ومبادئه . وما أجدرنا أن نستمسك بها ونحرص عليها . إن من بهرهم الجديد ببريقه ولمعانه تنكروا لها ، فوقعوا في حيرة وبلبلة . وأحسوا بفقر أخلاق واجتماعي ، برغم غناهم المادى . في قديمنا عطف وشفقة ما أحوجنا إليهما ، عطف على الضعيف والصغير ، وشفقة على الفقير والمحتاج ، عطف وشفقة ينبعثان من القلب ويعبران عن ضمير حى . وما أحوجنا إلى ذلك في عالم تحجرت فيه القلوب وماتت الضمائر . وفي ماضينا احترام للكبار وطاعة لأولى الأمر .

والسمع والطاعة حق على المرء المؤمن فيها أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة عليه . فهل نحظى في أجيالنا الشابة بذلك الاحترام الذى كنا نحس به ونلمسه في أجيالنا السابقة . وهل كلمتا السمع والطاعة محبتان إلى شبابنا كما كانتا محبتين إلى شيوخنا ؟ وهل الإيمان بالواجب يملأ قلوبنا كما يملأ قلوب آبائنا وأجدادنا ؟ وفى القديم حياء واستحياء كانت تحمر لها الوجوه وتستتر العورات ، وإذا بهما قد تبدلا إلى وجوه مكشوفة ، وتحولا إلى شئ من الفجور واللامبالاة ، إن في قديمنا قيما كثيرة لا أستطيع أن أدخل الآن في تفاصيلها ، ولكنى أحب أن أشير فقط إلى أن حضارات أخرى حرمت منها فضلت وأضلت . ولا ألقى وزر ازدياء القديم على الشباب وحده ، بل لابد لى أن أقرر أن الشيوخ والآباء قصرُوا في أداء رسالتهم ، وكان عليهم أن يغرسوا في أبنائهم احترام الصالح من تراثنا . وجهه والاستمسك به .

* * *

لابد لى أن أشير أخيرا إلى أمر له شأنه في الصراع بين القديم والجديد ، ألا وهو أن هذا الصراع يتطلب قيادة فكرية

وروحية حكيمة وحازمة . وما أشد حاجتنا إلى هذه القيادة .
ولكننا لا نريد لها أن تتحول إلى حزبية وطائفية ، أو إلى
محافظين ومجددين . أو إلى يمين ويسار . وإنما نريد بها أن نلتقي
عند كلمة سواء تحمى بها القديم الصالح من الانهيار ، ونحول
دون الجديد الضار من الانتشار . نريد لها أن تعيش في
عصرها ، وأن تتسع آفاقها . وأن تجد الشجاعة الكافية التي
تحق بها الحق ، وتبطل الباطل .. نريد لها أن تسمو عن السفه
والمهاترة . وأن نفرغ في جد لدراسة أدوائنا الخلقية
والاجتماعية . وأن نتطلب لها في رفق وحكمة . إنها إن فعلت
رسمت الطريق واضحًا . وقربت مسافة الخلف بين الشباب
والشيوخ . بين المجددين والمحافظين . هذه هي رسالتها ، وعليها
أن تؤديها على وجهها .

٢ - التجديد فى الإسلام

سأحدثكم الليلة عن التجديد فى الإسلام ، ونخطئ كل الخطأ إن زعمنا أن الإسلام يرفض الجديد أو لا يرحب به . نخطئ حقاً لأن الإسلام نفسه دعوة جديدة جاءت لتهدم الوثنية وتقضى عليها . وشاء أيضاً أن تكشف عن بعض ما أدخل على التوراة والإنجيل من تحريف أو تعديل . والإسلام عقيدة سهلة ميسرة تقرر أن الله واحد . وأن محمداً رسوله . وعباداته واضحة محددة ومحصورة . ومعاملاته تخضع لسنن الحياة والتطور . وكتابه المنزل عرى مبين . وذكر حكيم . شاء الله أن يقف به عند المبادئ العامة والأصول المقررة . فلم يفلسف العقيدة على نحو ما صنع المتكلمون فيها بعد . وفلسفتهم هذه ولاشك أمر جديد لم يعرفه الصحابة ولا التابعون ، ولم ينكره إلا نفر قليل ممن جاءوا بعدهم من الدارسين والباحثين ، ولا تزال هذه الفلسفة تدرس حتى اليوم ، وهى على كل حال لم تززع عقيدة المؤمنين فى شىء .

ولم يعرض القرآن للعبادات إلا في صورة أوامر عامة
ومجملة . فأمر بالصلاة ودعا إلى وجوب أدائها في أوقاتها .
ولكنه لم يحدد عددها ، ولم يبين أركانها ، ولم يفرق بين
فروضها ونوافلها . وترك ذلك كله لفعل النبي وقوله ، وجاء
الصحابة والتابعون فشرحوا هذا الفعل ووضحوا هذا القول .
وأفسحوا المجال للأئمة والفقهاء ، فشرعوا ما شرعوا ، وأفتوا
بما أفتوا . وكانت إضافاتهم جزءاً هاماً و متمماً لمعالم الدين .
ولا تختلف الزكاة والصيام والحج عن ذلك كثيراً ، وهي
مكملات أركان الإسلام ، أجمل القرآن الحديث عنها ، وترك
للسنة تفصيل القول فيها . ونحن نعلم أن الصوم لم يفرض إلا في
العام الثاني للهجرة ، وهذا تدرج في التشريع له حكمته .
والراجح أن الزكاة فرضت أيضاً في هذا العام نفسه ، وإن قيل
إنها لم تفرض إلا في العام التاسع . ولم يحج النبي صلى الله عليه
وسلم إلا حجة واحدة هي حجة الوداع . ورحم الله أبا بكر
الذى حارب المرتدين من أجل الزكاة ، ولم يسمح بأن يفرض
في عقاب بغير . ورحم الله عمر بن الخطاب الذي رسم لبית
مال المسلمين حدوده . ومعالمه ووضع المبادئ الكبرى لعلم
المالية في الإسلام . وتتابع الصحابة والتابعون في تحديد معالم
هذه العبادات . وسار على نهجهم أصحاب المذاهب والفقهاء .

ففرقوا بين الصيام الواجب والمندوب ، وبين الزكاة والصدقة .
 وحددوا الأموال التي تجب فيها الزكاة ، والأنصبة التي يستحق
 الدفع عنها ، والنسب التي تؤخذ منها . ورسوموا للحج والعمرة
 مناسكها ، وبيّنوا طريقة السير في أدائها . واستكملت
 العبادات تشريعها في هدى الكتاب والسنة . وفي ضوء فهم
 الباحثين والمقننين . وحسن تقديرهم وسلامة حكمهم . وكل
 تلك إضافات جديدة لم يجد المسلمون أية غضاضة في القول
 بها . بل بالعكس رأوا من واجهم أن يستكملوها .

والأمر في المعاملات أفسح وأيسر لأنها من شئون الدنيا .
 وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بأبرون النخل (أى
 يلحقونه) فترك لهم معالجة ذلك على نحو ما يعرفون . وقال
 كلمته المشهورة : « ما كان من أمر دينكم فإلى » . وما كان
 من أمر دنياكم فإليكم » . والمعاملات في الواقع في تطور
 مستمر . وكم جدت فيها ألوان لم تكن معروفة من قبل .
 وظهرت صور وأشكال لم تكن معهودة . ومن ذا الذي يزعم
 أن تعامل المسلمين بعد الغزو والفتح . وبعد انتشار الإسلام
 شرقاً وغرباً . بقى كما هو عند الحدود التي عرفت في مكة
 والمدينة . وكان لابدّ لمفكرى الإسلام ومشريعيه أن يواجهوا

ذلك . وأن يعدوا له عدته . فوضعوا في التشريع مناهج ومبادئ واضحة . وشرعوا لكل جديد طراً عليهم . وفي كتبنا الفقهية القديمة مادة غزيرة يمكن أن تكون أساساً لوضع قانون مدني وآخر تجارى . ولا ضير مطلقاً في أن نفيد من تجارب غيرنا إن كان فيها ما يلائمنا ولا يتعارض مع تعاليمنا . وقديماً قالوا : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه . وفي أخريات القرن الماضي . طلب إلى شيوخنا أن يصوغوا تشريعنا صياغة حديثة . أسوة ببعض ما تم في تركيا . ولكنهم استعفوا ولم يؤدوا رسالتهم الواجبة . وكان لابد لنا أن نلجأ إلى وسيلة أخرى . فأخذنا ما أخذنا عن القوانين الحديثة . من إنجليزية وألمانية وبخاصة فرنسية . وعشنا معها ، وبنيت عليها معاملاتنا كلها منذ قرن تقريباً .

ويظهر أنا بدأنا نحس بقصور الماضي . وأخذنا نطالب بوضع تشريعات جديدة تعتمد على الفقه القديم وحده . وأسأل حقاً هل نحن مغمرون بالهدم والبناء ؟ وهل تعالج الشئون العامة والتقاليد الثابتة على هذا النحو ؟ أليس الأولى بنا أن ننظر في قوانيننا القائمة . فما التقى منها مع مبادئ الإسلام أبقيناه وثبتناه ، وما كان مخالفاً عدلناه وأصلحناه . ولا ننسى

أن التشريع يسير دائماً مع الزمن . ونحن نعيش في القرن العشرين - فإن ننكرنا له أنكرنا ولا حياة لنا فيه . وعلماء الفقه الإسلامى يدركون جيداً أن هذا الفقه سار فعلاً مع الزمن ، فلم يخلق في يوم وليلة ، بل لم يخلق في جيل بعينه ولا في مدرسة واحدة . آمن رجاله بأنهم قادرون على فهم مبادئ الإسلام . وأنهم مكلفون بتطبيقها ، ففتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه . وجاءوا بحلول عملية ، وما فاتهم لابد لنا أن نتداركه .

* * *

أظن أنه لا محل . بعد ما قدمت . أن ننكر التجديد في الإسلام ، وأصارحكم بأن من يلجأون إلى هذا الإنكار يسيثون إلى أنفسهم بدرجة لا تقل عن إساءتهم لدينهم . يسيثون إلى أنفسهم لأنهم يعطلون ما وهبهم الله من عقل وتفكير . ويقضون على ما سلم به الإسلام من حرية الفكر والاختيار . وكيف ننكر التجديد ، وقد أخذ به أسلافنا وأضافوا ما أضافوا - أو ليس صنع عمر بن الخطاب الإدارى والحضارى تجديداً نعتر به ونعول عليه ، ثم توالى بعده

المجددون والمصلحون . وقد قيل إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمور دينها . وأنا لا أقف شخصياً عند هذا التحديد الزمني بل أنا مع من يقول : إن الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة . وفي وسعنا أن نجدد ونبتكر متى استكملنا وسائل البحث والدرس . ولا يطلب منا إلا أن نقف عند معالم الإسلام وحدوده الكبرى ولم يتردد أسلافنا وفقهاؤنا في أن يسيروا ويجددوا . ولا ضير على المرء في أن يعدل عن رأى رآه بالأمس إن تبين له خطؤه اليوم . ونحن نعلم أن للشافعى مذهباً قديماً وآخر جديداً . ولم يتفق أصحاب أبى حنيفة معه في كل ما انتهى إليه . لثق بأنفسنا . ولنساير عصرنا دون زيغ أو انحراف وإلا رمينا بالتأخر والجمود .

٣- نهضتنا الحديثة

أختم هذه السلسلة القصيرة بكلمة عن نهضتنا الحديثة . ولست في حاجة أن أشير إلى أننا عشنا في ظلمة شبه حالكة زمناً طويلاً ، مدة خمسة قرون ، من القرن الرابع عشر الميلادى .

إلى القرن الثامن عشر. فلا إنتاج يعتد به فكريًا وأدبيًا ، ولا ازدهار ننعم به اقتصاديًا واجتماعيًا ، ولا تجديد ولا ابتكار. ثم جاءت الحملة الفرنسية فألهمت شعورنا وأججت حماسنا ، وبعثت فينا حياة جديدة . وتلاها محمد علي وهو مجرد جندي أو قائد عسكري من قوله ، ولكن تفتحت عيناه على حضارة الدنيا ، وقدر له أن يتولى أمر مصر نحو أربعين سنة . وبرغم أنه بلى بحروب كثيرة ومضنية ، فإنه يعد بحق واضع أول لبنة في نهضتنا المعاصرة في جوانبها الاقتصادية والعمرانية والثقافية . فأنشأ ما أنشأ من مصانع ، وأقام ما أقام من قناطر وجسور . وأسس مدارس الطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية ، وأوفد إلى أوروبا ، وإلى فرنسا بخاصة ، بعثات متتالية ، وكانت أولها عام ١٨٢٦ ، واشتملت على نحو ٤٠ طالبًا لدراسة الرياضة والهندسة والطب والعلوم الصناعية .

ومن هؤلاء نشأ الرعيل الأول من دعاة النهوض والإصلاح . ونذكر من بينهم أولاً رفاعة الطهطاوى (١٨٧٢) الذى جمع بين القديم والجديد ، تخرج فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا إمامًا للبعثة الأولى التى أرسلها محمد على . والتى أشرنا

إليها من قبل . ثم عاد إلى بلاده فكان شيخ المترجمين ، وأول مؤسس للصحافة المصرية الرسمية . وإلى جانب ما خرَّج من تلاميذ وأعوان . حاول أن يقدم صورًا حية من الحضارة الأوروبية ، تفتح الآفاق وتقدم بعض النماذج العملية . ويمكن أن نضيف إليه معاصرًا آخر له شأن في ربط القديم بالجديد . وهو على مبارك (١٨٩٣) الذي تخرج في مدرسة المهندسخانة ، ثم سافر في بعثة إلى فرنسا . وبعد عودته اضطلع بأعباء مختلفة . أهمها ديوان الأشغال وديوان المدارس . وهو الذي أنشأ دار الكتب ودار العلوم . ومن طريف ما كتب روايته : « علم الدين » التي ترمى إلى الملاءمة بين القديم والجديد وتقوم على مسامرات بين شيخ أزهرى ومستشرق إنجليزى يطوفان أوروبا معًا .

ولاشك في أن ربط الجديد بالقديم توثقت عراه في أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن على أيدي جمال الدين الأفغانى (١٨٩٨) ، ومحمد عبده (١٩٠٥) . وقد فهمها معًا القديم حق الفهم . وقبلًا من الجديد ما لا ضير فيه ولا غبار عليه . كانا يتخذان من أنفسهما وآرائهما قدوة عملية . فكانا يجهران بدعوتهما ، ولا يخشيان في الحق لومة لائم . وقد حوربا

وطوردا . ولكن دعوتها أخذت طريقها . وآت ثمارها .
 فاستطاع جمال الدين بمقالاته المشتعلة . وبأحاديثه وسمره في
 الأنندية والمقاهي أن يخلق وعيًا جديدًا . وأن يبعث شعورًا
 قويًا . واستطاع محمد عبده بدروسه في الرواق العباسي .
 وبمقالاته ومؤلفاته أن يرسم منهجًا جديدًا في البحث
 الإسلامي . لا يسلم بكل قديم لأنه قديم . ولا يقبل من
 الجديد إلا ما طابت له نفسه ويتلاءم مع مبادئ الإسلام . رفع
 راية حرية البحث . وضرب مثلاً رائعًا في الاجتهاد وإصدار
 الأحكام . حارب البدع والخرافات ، واستنكر تفريعات
 الفقهاء الخيالية . وفق بين العقل والنقل ، ونادى بالتسامح
 الديني والتقارب بين مختلف الشعوب . ودعا إلى إنشاء مدرسة
 القضاء الشرعي لكي تطبق منهجه وتجمع بين القديم
 والحديث . ولو قدر لها أن تبقى إلى اليوم لصارت نموذجًا
 يحتذى في بلاد إسلامية كثيرة .

تخرج على يدي هذين المصلحين دعاة وقادة كثيرون كانوا
 مشعل النور وحملة رسالة النهوض والتقدم في النصف الأول
 من هذا القرن . وأدع جانبًا لطفى السيد ومدرسته ، لأنني
 أخشى أن يقال إن هؤلاء كانوا ألصق بالغرب وأميل إلى

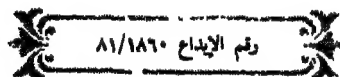
الجدید . وأحرص على أن أقدم نماذج من البيئة الدينية والنشأة الأزهرية . وفي مقدمتهم محمد مصطفى المراغی (١٩٤٥) الذى تتلمذ للأستاذ الإمام . وأشرب بروحه ، وخطا خطوات فسيحة فى سبيل إصلاح القضاء الشرعى والنهوض به . ونظر إلى الفقه الإسلامى نظرة شاملة . واختار منه ما يسد حاجات العصر ويحقق التيسير المنشود ، دون تقييد بمذهب معين . وكان له فى أخريات حياته دروس دينية تعد نموذجًا للفكر المستنير ، ومثلاً رائعاً لمواجهة حاجات العصر ومتطلباته . ومن معاصريه تلميذ آخر ربما كان أقرب إلى محمد عبده وألصق به ، وأعنى به مصطفى عبد الرازق (١٩٤٧) ، وقد تخرج هو أيضاً فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا . وقضى فيها زمناً . ويوم أن عاد إلى مصر وكل إليه شىء من شئون الأزهر ومجلسه الأعلى ، ثم اضطلع بأعباء أخرى ، وانتهى به المطاف أن أصبح شيخاً للأزهر فى أخريات حياته ، فكان واحداً من القيادات الأدبية والفكرية ، والسياسية والاجتماعية . وينحوفى إصلاحه منحنى الرفق والأناة ، والإخاء والمساواة . وفق بين الفلسفة والدين ، ولاحظ بحق أن الفقه الإسلامى لم يخل من دعائم فلسفية . وحياته فى اختصار صورة جذابة للمسلم المصرى المعاصر .

لا أشك في أنا نلاحظ أن نهضتنا الحديثة قامت على دعامة قوية من القديم والجديد . ففرغنا كيف نلائم بينها في حكمة واتزان . وسرنا في طريقنا في غير ما تعثر ولا طفرة . صفينا القديم بما لصق به من رواسب وشوائب . وأضفنا إليه جديداً يدعو إلى النهوض والحركة . ويقدر القيم والمثل . وقد حظينا بقيادات روحية وفكرية لها وزنها . عرفت الداء وأعدت له الدواء . أحسنت التوجيه . ورسمت سبل الإرشاد والتفاهم . وأخشى ما أخشاه أن تعوزنا هذه القيادات اليوم . فبلينا في ربع القرن الأخير بنكسة لم يعرف أنصار القديم فيها إلا التشبث بأشباح باليه . ويجموح أنصار الجديد وانحرافهم إلى الغلو والإسراف . فأنكروا قيمهم . واستهانوا بمقدساتهم وربما يكون كأس الجديد قد طفح بعض الشيء . وربما كانت وراءه دسائس محكمة ودعايات هدامة . ولكن من العبث أن نواجهه بجمود قاتل ومحافظة فاشلة . وهل من سبيل إلى إحياء الموتى . أو من أمل في العودة إلى الوراء ؟

لنطرح إذن ما اطرحناه سلفاً من قديم بال . ولنستمسك فقط بالمبادئ والقيم . وقد اتسع صدر الإسلام لكل جديد . بعد أن هذبه وطوره حتى أصبح ملائماً لروحه ومبادئه . فهل تقوى قياداتنا الفكرية والروحية على ذلك ؟ هذا ما نتمناه .

الفهرس

- ٥ بيان
- الحلقة الأولى
- ٧ الشباب
- الحلقة الثانية
- ٣٥ بناء الإنسان المصرى
- الحلقة الثالثة
- ٩١ بين القديم والجديد



مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع مزاحى، هاتف: ٧٥٤٣١٤، بريدنا: شروق القاهر - تلکس: 93091 SHROK UN
بجروت: ص ٨٠٦٤٠١٠، هاتف: ٣١٥٨٥٩، بريدنا: داشروق - تلکس: SHOROK 20175 LE

